الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بنى أمية ، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل ، واتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانيا للخاتم [١] أو ختم الرسائل التى تصدر عنه إلى الولاة ، ويهمنا خاصة الديوان الأول : ديوان الرسائل ، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه ، بحيث يكونون فى الذروة من البيان والبلاغة لزمنهم ، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب ، ويذكر الجهشيارى أثباتًا طويلة بأسمائهم . أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالى فأصبح كتابه من العرب ، وسرعان ماعُنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخذوا يشاركون فى ديوان الرسائل [٢] .

ومانصل إلى زمن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٤ – ١٢٤ هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل فى دمشق بيد مولى لهشام هو سالم [٣] ، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسطاليس [٤] ، ومعنى ذلك أنه كان مثقفا ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية ، وعدَّه صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول فى تاريخ العرب وأدبهم ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة [٥] واحتفظ الطبرى برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسرى ، وهى تحمل عناية واضحة بالأسلوب ومايوفره له من الازدواج والترادف الصوتى . وتبعه فى النهوض بالرسائل

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ٢٤ .

(٢) انظر فى ذلك الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٠٣ .

(٣) الجهشيارى ص ٦٢ .

(٤) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١ ، ١٨٢ .

السياسية تلميذان : أحدهما من بيته هو ابنه عبدالله ، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذى انتهت إليه رياسة ديوان الرسائل فى أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه ، لبلاغته وقد ضُربت بها الأمثال ، فقيل : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد » [١] ويقول ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهَّل سبيل البلاغة فى الترسل [٢] » ويقول المسعودى إنه « أول من استخدم التحميدات فى الكتب [٣] » واشتهر برسالة وجَّه بها إلى الكتاب ، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكِّلون فئة بارزة فى حياة الدولة والمجتمع ، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية [٤] . وكان يعرف الفارسية ، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى فحوَّلها إلى اللسان العربى [٥] » وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية . وتحتفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية ، ومنها رسالة [٦] طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجَّهه لمحاربة بعض الخوارج ، وهى أشبه بكتيِّب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتدبير شئونها من الوجهتين المادية والحربية . وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هى والشام جميعه ولاية تابعة للعباسيين ، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر فى عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين ، بل لقد تعطل تماما ، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكاتب كبير ، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد ، وأصبحنا طوال القرون : الثانى والثالث والرابع مشدودين إلى ديوان بغداد وكتَّابه العظام ، وأخذت الدولة الطولونية تعنى فى الفسطاط بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبدكان وأضرابه ، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام ، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا ، وظل كثير من بلدانها تابعا لمصر فى زمن الدولة الفاطمية ، ولم ينشأ حينئذ فى دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية ، حتى إذا أظلَّ دمشق حكم دولة الأتابكة البوريين (٤٩٧ – ٥٤٩ هـ) رأيناها تعنى

---

(١) اليتيمة للثعالبى (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ١٥٤/٣ .

(٢) الفهرست ص ١٧٠ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء) ١٧٨/٣

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبى) ص ٦٩

(٦) صبح الأعشى للقلقشندى ١٩٥/١٠ وما بعدها .

بهذا الديوان ، ويشتهر ببلاغه الكتابة فيه كتاب مختلفون ، لعل أهمهم سنى الدولة[١] ابن أخى الشاعر ابن الخياط الذى ترجمنا له بين شعراء المديح ، ويذكر له العماد قطعا مختلفة من منشوراته وتقاليده ، من ذلك قوله فى منشور بالوزارة :

« لما كان محله عندنا خطيرا ، ومكانه لدنيا مكينًا أثيرا ، لاقرين يجاريه ، ولانظير يماثله ويُباريه ، ولا متطاول يطمع فى إدراك معاليه ، شددنا بركنه أركانها ، وسددنا به مكانها ، وعوَّلنا عليه فيها ، واستنهضناه لتوليها ، ورأيناه كُفأها وكافيها » .

وكتاباته على هذا النحو دائما مسجوعة سجعا فيه غير قليل من الرشاقة والعذوبة . وكتب بعده لسلاطين دمشق البوريين عبد الله بن أحمد الحميدى المعروف باسم ابن النقاد[٢] الكاتب الدمشقى ، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود ، وكتب له مدة يسيرة ، وتوفى سنة ثمان أوتسع وستين وخمسمائة ، ولم يذكر العماد شيئا من كتاباته .

ويُظِلُّ حلب ودمشق . وبلدان الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ – ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومستوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسرانى ، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح ، ويقول العماد فيه : « كان نور الدين رفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه فى الملك معه »[٣] ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته فى البلدان التى أظلها حكمه جاء فيه [٤] .

« وقد علمتم – معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم – ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيِّقة عليكم فى أرزاقكم ، والمؤن التى تساهمكم فى منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم إلى أن فوَّض الله – عزَّ وجلَّ – لنا – تدبير أموالكم ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا ، ولم نبتغ فى إقراره على وجوهه شُبْهة ولاتأولا » .

ويلى ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب . وكان من كتابه أبو اليسر [٥] شاكر بن عبد الله المعرى كاتب الإنشاء بدمشق ، واستعفاه من الخدمة سنة ٥٦٣

(١) انظر فى سنى الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١/٣١٤ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٢٧٧ والنجوم الزاهرة ٦/٦٥ .

(٣) الخريدة ١/١٢٥ .

(٤) انظر مفرج الكروب لابن واصل ١/٢٧٠ وما بعدها .

(٥) الخريدة (قسم الشام) ٢/٣٥ وراجع فى أبى اليسر تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٠٤ .

فأقام العماد الأصبهانى مقامه ، وأضاف إليه – كما هو معروف – التدريس فى مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية . ووصله القاضى الفاضل بصلاح الدين فرسم باستكتابه فى ديوانه بالشام ، وسنفرد له ترجمة مجملة ، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية فى دمشق والشام غيرَ منازَع . وتتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين ، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبى ، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه ، وكان بينهم غير مصرى مثل ابن النبيه كاتب الأشرف موسى ، وهو مشهور بين شعراء الغزل فى مصر ، ومثل عبد الرحيم بن على بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبى صاحب دمشق ، وله كتاب فى عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » وهو مطبوع قديما ببيروت ، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقا فى إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق ، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبى المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة ، عمل فى ديوان الإنشاء بدمشق ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة فى عهد الظاهر بيبرس وقلاوون ، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر ، ويقول ابن تغرى بردى : « لكلامه رونق وطلاوة » ويذكر من إنشائه كتابا عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتحه لطرابلس واستيلائه عليها من أيدى الصليبيين نوَّه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازلة حملة الصليب الغارقين فى اللهو ، يقول[1] :

« وكانت الخلفاء والملوك مافيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه ، مكبٌ على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عَنَّ له وَصْف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة ، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسِّكَّة والخطبة ، وأموال تُنْهب ، وممالك تذهب » .

ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم فى ختام خطابتهم يوم الجمعة . وتولى بعده كتابة السر فى القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفى سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين على فى عهد محمد الناصر بن قلاوون .

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥ ، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندى فى صبحه بنماذج كثيرة من رسائله

(١) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع فى ترجمته ٣٤/٨

وتوقيعاته الديوانية ، وذكر هو نفسه منها طائفة فى كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وذكر ابن حجر عن الصفدى أن رسائله تدخل فى ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مجلدين ، ومن قوله فى التهنئة بتقليد سيف[١] :

« وقلده مِنَنًا : سيفا تلمع مخايل النصر من غِمْده ، وتشرق جواهر الفتح فى فِرِنْده ، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حَدِّه ، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهتْ عزائمه ، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه ، وعُلم أنه سيفنا الذى على عاتق الملك الأعز نِجاده وفى يد جبار السموات قائمه » .

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفى مصر فى دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخصه بكلمة ، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموى المعروف بابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق ، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السر بها إلى أن توفى ، وقد احتفظ القلقشندى له بعهد عن الإمام المستعين (الخليفة العباسى المقيم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ ، وفيه يقول[٢] :

« الحمد لله الذى جعل الدين بنصره مؤيدا ، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه بادئة بائدة العِدا ، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زُويتْ له عوارف العدل ومعارف الفضل ، فاستغنى ولله الحمد – بسعيد السعدا ، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه ، فأصبحت مأمونة الرِّداء ، آمنة من الرَّدى ، وامتنَّ على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسدَّدا » .

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح فى هذه السطور ، إذ يطيل سجعاته وقد جعل الدال قوافيها جميعا ، وهو إنما يطيل سجعاته ليضيف إليها الجناس كما فى « بادئة وبائدة » و « أحكام وإحكام » و « الرِّداء : الثوب (كناية عن الأحوال) والرَّدَى : الهلاك . ويفسح أيضا للسجع الداخلى فى السجعة مثل : « عوارف العدل ومعارف الفضل » .

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهبية ص ١٠٠ . وفرند السيف : لمعان صفحته . والقوادم : ريشات الطائر الكبار فى جناحه . ونجاد السيف : حمائله .

(٢) صبح الأعشى ١٠/١٢١ وانظر فى ترجمته النجوم الزاهرة ١٤/١٦١ .

وعيَّن ابن البارزى فى ديوان الإنشاء أديبا مواطنا له هو ابن حجّة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرد له كلمة قصيرة ، وخلف ابن البارزى فى كتابة السر ابنه كمال الدين ، وكان تارة يُعْزَل وتارة يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦ .

ووراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم فى الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى القاهرة فى ديوانها الكبير كتَّاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام البلدان الشامية ، وأهمهم كتَّاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان ، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية ، ونذكر من كتَّابها علاء الدين على بن محمد بن سلمان المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره فى وصف قلعة [١] :

« لاترى العيونُ لبعد مرماها إلا شَزْرا ، ولاينظر سكانُها العدد الكثير إلا نَزْرا ، ولايظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج ، ولها من الفرات خندق يحفّها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » .

ونذكر من أهم كتَّاب السر فى دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفا ، وهو كمال الدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله ، تولَّى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح [٢] الدين بن الشهيد حتى توفى سنة ٧٩٣ وكان بارعا فى الشعر وكتابة الرسائل ، ونظم السيرة لابن هشام فى رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت . ومنهم صدر الدين على بن محمد المعروف بابن الأدمى المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق ، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها ، ونقله معه المؤيد شيخ حين أصبح سلطانا لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان إما مابارعا أديبا فصيحا ذكيا [٣] » .

ومازالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفى غيرها من بلدان الشام . ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين .

---

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢ . النظر الشزر : المستهين ، فرات : حلو . أجاج : شديد الملوحة .

(٢) النجوم الزاهرة ١٢٥/١٢

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٢/١٤ .

العماد[1] الأصبهانى

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقرَّ بها . وانتظم هو فى سلك المدرسة النظامية مع لداته من الناشئة ، وتفقه بها ، وثقف علوم العربية ، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢ ، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد ، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط . وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه ، ورُدَّت إليه حريته سريعا ، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته ، ورأى أن يفارقها ، وولَّى وجهه نحو دمشق ، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود ، وقدَّمه قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزورى إلى أمير مهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب ، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين ، ثم قدمه القاضى إلى نور الدين فأعجب به واتخذه صاحب سره ، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستنجد ببغداد ، ونجح فى مهمته . وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريس فى مدرسته النورية التى أنشأها بدمشق لدراسة الفقة الشافعى ، وقد سماها من أجله تكريما له المدرسة العمادية . ولم يلبث أن أضاف إليه رياسة ديوان الإنشاء . ولما توفى نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية ابنه اسماعيل العماد من وظائفه ، فترك دمشق قاصدا بغداد ، ومرض فى طريقه إليها بالموصل ، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها ، فعاد ثوًّا ، والتقى بصلاح الدين فى حمص ، وقدمه إليه وزيره القاضى الفاضل ، ورغَّبه فى إلحاقه معه بخدمته ، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه فى الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية . ولما توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق ، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله . وزار مصر حينئذ ، ثم عاد إلى دمشق ، فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفى سنة ٥٩٧ .

والعماد الأصبهانى أديب كبير : كاتب وشاعر ، وكان له ديوان كبير فى أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات ، وقد أنشدنا بعض شعره فى حديثنا عن شعراء المديح والرثاء ، وكان يجيد الفارسية

---

(١) انظر فى ترجمة العماد : معجم الأدباء ١١/١٨ وابن خلكان ١٤٧/٥ والروضتين فى مواضع مختلفة والجزء الثانى من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبى ٢٩٩/٤ والوافى بالوفيات ١٣٣/١ وطبقات الشافعية للسبكى ١٧٨/٦ والبداية والنهاية ٣٠/١٣ ومرآة الجنان ٤٩٢/٣ والشذرات ٣٣٢/٤ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه) . وفى كتابيه : البرق الشامى والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له .

لغة موطنه ، ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالى . ومرَّ بنا فى حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفاته التاريخية : كتاب البرق الشامى الذى وصف فيه أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما وهو فى سبعة مجلدات ، وكتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى فى وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وكتاب نصرة الفطرة وعُصْرة القَطْرة فى تاريخ السلاجقة ووزرائهم ؛ وذكرنا – فى غير هذا الموضع – أن الفتح البندارى اختصره باسم « زبدة النصرة ونخبة العصرة » وأنه طبع فى القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق . والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، وهو فى شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته فى أوائل العقد الثامن من القرن السالف . وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب العُتْبى والعُقْبى فى بيان الأحداث التى تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة للرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ، وكتاب خطفة البارق وعطفة الشارق فى ذكر أحداث من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته . وقد عمم العماد فى كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس ، مما يدل – رغم مافيها من تكلف – على مهارة أدبية رائعة .

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام ، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحا دَحَر فيه حَملة الصليب ومزَّقهم تمزيقا كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البلدان من الحكام ، يبشر بالنصر المبين فى سبيل الدين . ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل – بعد موت صاحبها غازى بن مودود – إلى دولته ومملكته ، يقول فيه العماد :

« لاخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم ، أنقذها الله من عَبيد بنى عُبَيْد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعنَّتنا إليها من عناء كل قيد ، وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى السر إلى اليوم . وطوائف أقاليم الروم والفرنج بها مطيفة فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل – والعياذ بالله – بها فتق لأعضل رَتْقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الاسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها ، وله خمس سنين فى بَيْكارها (حربها) منتقما من كفارها متحملا لمشاقِّها على غلاء أسعارها » .

وقد جانس العماد فى أول القطعة بين « عَبيد وعُبَيْد » وبين « أطلقها وبمطلقات » . وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصريا على الأقل فى

جمهوره الأكبر . ويذكر صاحب الروضتين كثرة ماكان يكتبه العماد من البشارات فى كل انتصار لصلاح الدين على حملة الصليب ، وماكان أكثر انتصاراته ، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كتب العماد سبعين بشارة ، وكانت البشارات رسائل طويلة يصف العماد فيها المواقع وصفا تفصيليا . ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التى كتب بها إلى الخليفة ببغداد ، وفيها يقول ، بعد إطنابه فى تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين .

« هذا الفتحُ العظيم ، والنُّجْحُ الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حَسْرةِ تمنِّيه ، وجيرة ترجِّيه ، ووحشة اليأس من تسنِّيه (انفكاك عقدته) وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذى أعاد القدس (الشريعة) إلى المقدس ، وأعاذه من الرِّجْس ، وحقق من فتحة ماكان فى النفس ، وبدَّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزَّ يومه ماحيًا ذُلَّ أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقَسِّ ، وعبدة الصليب ومستقبلى الشمس .. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد (يريد يوم الأحد) وقمع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح » .

والطباق كثير فى القطعة ، والجناس يُنْثر فيها من حين لآخر . وقد يُكثر منه فى بعض رسائله كثرة مفرطة ، بل هو أهم محسن بديعى أكثر من استخدامه ، وعابه الصفدى بهذا الإكثار ، متمثلا بقوله فى جواب مكاتبة :

« وقف الخادم على الكتاب وأفاض فى شكر فضل فَيْضه المستفيض ، وتبلُّج (إشراق) وجه وجاهته وتأرُّج (انتشار) نبأ نباهته ماعرَّفه من عَوارفه (فواضله) البيض » .

يقول الصفدى معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة : « انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسُّفه فى هذا الترتيب » . ويقول السبكى معلقا على كلام الصفدى : « الأمر كما وصف ، ولقد مجّ سمعى فواتحُ أبواب كتاب خريدة القصر ، لما يكثر فيها من الجناس وردّ العجز على الصدر » . على أن الصفدى نفسه يلاحظ أنه « حين يخلو كلام العماد المسجوع فى رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب فى السمع وقعه ، ويتسع فى الإحسان صُقْعه (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مُدامه ، ويكون عند مَن له ذوقٌ أطيبَ من تغريد حمامه » .

الصَّفدى [١]

هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدى ، ولد بصَفد فى فلسطين سنة ٦٩٦ وعُنى فى أول حياته بصناعة الرسم ، ثم اتجه إلى علوم الشريعة والعربية ، وتنقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء ، وأولع بالأدب . وكان أول ماولى من الأعمال كتابة الدَّرج بموطنه صَفد ، يكتب مايوقِّع به كبار الكتاب فى دواوينها لجودة خطه ، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها ، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها ، وتركها إلى دمشق ، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشاب الصفدى ، وعيَّنه فى كتابة الدَّسْت ، حتى يعاونه فى عمله ومايتصل به من إنشاء بعض الرسائل ، وانعقدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباتة ، وتخرج على يديه شاعرا ، كما تخرج على يدى الشهاب محمود كاتبا مجيدا . وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو مامرَّ بنا فى ترجمته ، وظل الصفدى يعمل فى دواوين الشام ، وعُيِّن رئيسا لديوان الإنشاء بحلب وقتا ، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بها فى كتابة الدَّسْت مساعدًا لرئيس ديوان الإنشاء بها وخاصة فى كتابة التواقيع والمراسيم الخاصة بتعيين القضاة وكبار الموظفين . وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال ، واستمر فى الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته فى الجامع الأموى للتدريس ، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبى وابن كثير .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان إماما بارعا كاتبا ناظما ناثرا شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدى الناس وهو من المكثرين . ويقف الحموى فى خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباتة لاحظ كثرة سرقاته لمعانى شعره وأنه ألف كتابا فى سرقاته منه سماه « خبز الشعير » يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله . وشعره فى جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية ، ومن طريف ماله قوله :

بِسَـهْـم ألحاظِـهِ رمـانى فذُبْتُ من هَجْره وبَيْنِهْ

---

(١) انظر فى الصفدى وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٥/١٠ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٢٠٠/٦ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وخزانة الأدب ص ١٧ وفى مواضع متفرقة من صبح الأعشى وخاصة ٨٦/١٢ ، ٣٥١ .

إن متُّ مالى سواه خَصْمٌ فإنه قاتلى بعينِهْ

ويعد من أكبر المصنفين فى التراجم والأدب والبديع والنقد ، وعلى رأس مصنفاته فى التراجم كتاب الوافى بالوفيات ، وهو فى نحو ثلاثين مجلدا ، ونشرت طائفة من أجزائه . واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه « أعوان النصر وأعيان العصر » من الأدباء والشعراء وهو فى ستة مجلدات ، وفى دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة . وألف فى مشاهير المكفوفين كتابه : نكْت الهِميْان فى نكت العميان ، وهو منشور . وله التذكرة الصفدية وهى مختارات أدبية وكتاب تشنيف السمع فى انسكاب الدمع : دمع المحبين والعشاق ، وله فى المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس ، وله فى النقد نصرة الثائر (وهو ابن أبى الحديد) على المثل السائر لابن الأثير ، والغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وهو شرح مليء بالملاحظات النقدية ، وبه دفاع بديع عن ابن سناء الملك إزاء ماانهمه به خصومه من استخدام بعض الألفاظ العامية ، وشَرَحَ رسالة ابن زيدون الجدية بشرح سماه « تمام المتون » . وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن ، كما أن له بعض مقامات ، ويقال إنه كتب وصنَّف مئين من المجلدات وخلَّف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع فى مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره .

وكانت رسائل الصفدى الديوانية تشغل مجلدات كثيرة ، ولم يحتفظ منها القلقشندى إلا برسائل قليلة ، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرائب وأوقاف وغير أوقاف ، وله يقول باسم صاحب الأمر :

« لما كانت دمشق فى الدنيا أنموذج الجنَّة التى وُعد بها المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يُرْزَقون ، وهى زهرة ملكنا ودُرَّة سلكنا .. تعيَّن أن ننتدب لها من جرَّبناه بعدًا وقربا ، وهززناه مثقَّفًا[1] وسَلَلْناه عَضْبا [2] وخبَأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف مايُدَّخر ، وأعزَّ مايُخبَأ ، كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرًا لما وزر ، وكم غنيتْ به أيامنا عن الشمس ولياليا عن القمر ، وكم علا ذُرَى رُتَب تعزّ على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتنقّل فى المباشرات [3] من البشر ، وكم كانت الأموال جُمادى [4] فأعادها ربيعا غرَّد به طائر الإقبال وصفر . فليتلقَّ هذه الولاية بالعزم الذى نعهده ، والحزم الذى شاهدناه ونشهده ، والتدبير الذى يعترف الصواب له

---

(١) مثقفا : سيفا مصقولا
(٢) عضبا : قاطعا .
(٣) المباشرات : الأعمال
(٤) جمادى : يريد قليلة

ولا يجحده ، حتى يثمِّر الأموال فى أوراق الحُسَّاب ، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب » .

وواضح مافى السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم ، ويلتمس الصفدى بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف ، كما يلتمس بعض الاستعارات ، ويبدو فيها غير قليل من التكلف ، كما يبدو التكلف أحيانا فى اجتلاب السجعات . ومن توقيعاته توقيع كتب به لكاتب السر بدمشق : ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس فى المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه :

« إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد [1] بها تتبين فوارس الجلاد فى مضايق الجدال ، وتتجلى بدور الكلام فى مطالع الكمال ، وتبدو شموس الجمال فيما لها من فسيح المجال . والمدرسة الناصرية – أثاب الله تعالى واقفها – هى الواسطة فى عقودها . والدرة الثمينة بلا كُفْء لها بين قيَمٍ نقودها ، قد تدبَّج فيها البناء وتأرَّج عليها [2] الثناء ، وتخرَّج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء .. فلذلك رُسم بالأمر العالى أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد ، والرجوع الى الحق أسعف وأسعد » .

وواقع مافى التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب فى مثل « جلاد وجدال » و « كلام وكمال » و « جمال ومجال » و « أمدح وأحمد » و « أسعف وأسعد » كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا . ولم يكن الصفدى يتكلف دائما مثل هذه الكلف فى جناساته ، بل هى تأتى عنده نادرة إذ كان حسبه أن يأتى بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة فى التكلف . وكثير من جوانب توقيعاته سلس سائغ . وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة .

---

(١) الطارف والتالد : الحادث والقديم .

(٢) تأرَّج عليها : عطُرها .

ابن حِجَة[1] الحموى

هو تقى الدين أبو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حِجَّة الحموى ، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها ، ودرس على شيوخها وأساتذتها ، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب ، وارتحل إلى دمشق والقاهرة يتزود من حلقات علمائهما وأدبائهما . وانعقدت صلات كثيرة بينه وبين بعض أدباء مصر من مثل ابن مكانس الذى مرت ترجمته ، وعاد إلى دمشق وأخذ يتردد بينها وبين القاهرة ، ويبدو أنه عمل فى دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى مواطنه كتابة السر بهما ، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين أصبح نائبا لسلطان مصر بدمشق ، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة اصطحبه معه واتخذه كاتب سره كما مر بنا ، واصطحب ابن البارزى معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبى ، وظل قائما على هذا العمل طوال حياة ابن البارزى وحكم المؤيد شيخ (٨١٥ – ٨٢٤ هـ) وظل كاتبا للإنشاء بعده عاما وأشهرا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباى سنة ٨٢٥ وتوقف أمره ، فعاد سريعا إلى موطنه حماة ، وظل بها مكبًّا على التصنيف والتأليف حتى توفى سنة ٨٣٧ هـ .

واشتهر بقصيدته : البديعية فى المديح النبوى وما حمَّل أبياتها من محسنات البديع لزمنه ، وهى فى مائة واثنين وأربعين بيتا وكل بيت يحمل محسنا من تلك المحسنات . وشرحها شرحا مطولا ، متوسعا فى سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع مالا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية ، بحيث أصبح الشرح – كما سماه – خزانة أدب . وتعد مرجعا أساسيا للشعر والشعراء فى زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه . وله فى البديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام . وله كتاب أدب طريف سماه « ثمرات الأوراق » طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيرا من المحاضرات والمساجلات ، مع الإلمام ببعض القواعد المهمة التى ينبغى ان تراعى فى الكتابة الديوانية ، ومع الإلمام أيضا ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضا ببعض رسائله . والكتاب فى مجموعة أشبه بكتب المحاضرات والنوادر . واختصر بعض

---

(١) انظر فى ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب فى مواضع كثيرة ، والبدر الطالع للشوكانى ١٦٤/١ والضوء اللامع للسخاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعانى ٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥ .

الأعمال ، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزى سنة ٨١٣ كما ذكر فى الخزانة بباب إرسال المثل ، وسمى مختصره تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة . وله كتب متعددة مذكورة فى كتاب البدر الطالع سقطت من يد الزمن . وله مقامة سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، وكان شاعرا ، كما كان كاتبا ، وأنشد فى الخزانة كثيرا من شعره ، ويقول الشوكانى : « قد يأتى فى نظمه بما هو حسن وبما هو فى غاية الركة والتكلف .. ونثره أحسن من نظمه » . وفى الخزانة رسائل كثيرة له ، وخاصة فى أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام . وفى « ثمرات الأوراق » كما أسلفنا — بعض رسائله ، وجمع ما أنشأه أولا بالشام ثم ما أنشأه فى عهد المؤيد ثم فى عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح فى كتاب سماه « قهوة الإنشاء » فى مجلدين ، ومنه مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الدار أيضا كتاب له محفوظ باسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدباء ، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ :

« ونُبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا الله فيه بالحُسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة .. دقَّ قفا السودان فالرايةُ البيضاء من كل قِلْع [1] عليه ، وقبَّل ثغور الإسلام وأَرْشَفها ريقَه الحلو فمالت غصَونها إليه .. وحَضَنَ مشتهى الروضة فى صدره وحنَا عليها حنُّو المرضعات على الفطيم :

وأرشفنا على ظمإٍ زُلالاً ألذَّ من المدامةِ للنديمِ

وراق مَديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النَّوى والحبّ ، فأرضع فى أحشاء الأرض جنين النبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ .. ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النَّوى ، وهامت به مخدَّرات [2] الأشجار فأرختْ ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى .. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة ، وثَقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالخائفة » .

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لابن حجة ، وأنه كان كاتبا مجيدا إن لم يكن بارعا ، وأطال السجعات ليحمِّلها مايريد من التوريات ، وهى كثيرة فى القطعة ، ومانمضى فيها حتى يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر ، يستغل ذلك فى التورية بكلمة

---

(١) يريد قلع السفن وشراعها

(٢) المخدَّرات : النساء يلزمن بيوتهن احتجابا عن الرجال . والاستعارة واضحة

الأبيات فلايريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمساكن . واختار أمهات العصف ، وهو ورق الشجر والزرع مما تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورِّيا بها فهو لا يريد الأبَّ الحقيقى كما يظن من ذكر الأمهات ، وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذا من قوله تعالى : (وفاكهةً وأبًّا متاعا لكم ولأنعامكم) واختار مع حلاوة اللقاء مرارة النوى ، وهو لايريد نوى التمر الحقيقى وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام ، وبالمثل يمكن أن يكون فى كلمة الهوى تورية لأن لها معنيين : العشق والريح ، وأيضا فى كلمة الجوارى تورية إذ لايريد الجوارى الحقيقيات مع مايوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية . وكان تعيين كبار موظفى الدولة من وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم فى شكل رسالة مطولة يكتبها منشئ الديوان ، ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقينى الشافعى بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا علمه :

« هو أبو العلماء الذى ولَّد من الأم أفراحهم ، وأبو المهات الذى شَهَر من العُدَّة الكاملة فى ميدان الفرسان سلاحهم ، وإليه انتهت الغاية فإنه مابرح يأتينا فى وجيز تقريبه بالعجاب ، ويغنينا عن موضح القشيرى فإنه يغذينا فى إبانته باللباب .. وقد وقع التمويه فى الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية ، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رءوسها والمذهب الذى تهذيبه فى أدب القاضى كفاية ، وهو البحر الذى مادخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه فى البسيط كامل ، ولانظرنا إلى حليته الجلالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل » .

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعى ، وقد بدأها فى السجعة الأولى بذكر كتاب الأم للإمام الشافعى ، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية فى اختصار النهاية للعز بن عبدالسلام ، والنهاية هى نهاية المطلب فى دراسة المذهب لإمام الحرمين الجوينى ، وأشار معه فى نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالى وتقريب القفَّال الشاشى ، ثم ذكر اللُّباب وهو لباب الألباب للآمدى فى علم الأصول ، وأضاف إليه الإبانة مشيرا إلى كتاب الإبانة فى فقه الشافعية للفورانى ، ولم يلبث أن أشار إلى التبصرة لأبى إسحاق الشيرازى ونهاية المطلب المذكورة آنفا والمذهب لأبى شامة المقدسى والتهذيب للبغوى وأدب القاضى للماوردى والبسيط للغزالى والشامل لإمام الحرمين الجوينى . وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء فى التقليد لايتنبه إليها إلا بعد رويَّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات .

٢

الرسائل الشخصية

مرَّ بنا أن الشام هى التى وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم أتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الاسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس ، وتهيأ لها حينئذ من كبار الكتاب من لاتزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام ، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة[١] تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوبها الجزل الناصع مع السلاسة والعذوبة ومع ماعُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الآذان كما يروع الأذهان . ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم فى القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث العَتَّابى كلثوم بن عمرو ، وله بدوره – رسائل شخصية[٢] تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة . وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع فى الرسائل الديوانية ، فشاع فى الرسائل الشخصية لسبب طبيعى هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين ، وقد أصبح السجع ديدنهم ولغتهم فى كتاباتهم فعمَّموه فى رسائلهم الشخصية . ولعل كاتبا فى بلاط سيف الدولة الحمدانى لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد[٣] الواحد بن نصر المعروف بلقبه « البَبَّغاء » المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا ، وفى كتاباته يقول الثعالبى « نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة » ويتضح ذلك فيما روى الثعالبى من رسائله كقوله مثنيًا ، مطريا .

« شهابُ ذكاء ، وطَوْد وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحُسام حق ، ولسان صدق ، فالليالى بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه » . وقوله : « من كان جميل رأى سيدنا عُدَّته ، أمن من الدهر شدته ، ومن فَزِعَ إلى إحسانه ، استظهر على زمانه ، ومن توجه برغبته إليه ، لم تقدم الأيام عليه » .

---

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت (طبع ونشر مكتبة مصطفى البابى الحلبى) ٤٣٤/٢ وفى مواضع متفرقة .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها .

(٣) انظر ترجمته ورسائله فى اليتيمة ٢٣٦/١ وما بعدها ، وراجع ترجمته فى تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبى ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣ .

(١) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة ، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة ، عُنيت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث فى أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات ، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان فى الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة . وأولاها رسالة المَنِيح وهو القِدْح الثامن من قِداح الميسر التى ليس لها نصيب فى القمار ، وكأنه كنى به عن نفسه فى تلك الرسالة التى وجَّه بها إلى أبى القاسم الحسين بن على المغربى ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه . ونراه يستهل رسالته بقوله :

« إن كان للآداب – أطال الله بقاء سيدنا – نسيم يتضوَّع [١] ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فَغَمنا [٢] على بُعْد الدار أَرَجُ [٣] أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهُّبه ، وخوَّل [٤] الأسماع شُنوفا [٥] غير ذاهبة ، وأطلع فى سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ، وذلك أنا – معشر أهل هذه البلدة – وُهب لنا شرف عَظيم ، وأُلقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحَبْر [٦] ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءته نُسُك ، وختامه بل سائره مِسْك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . جَلَّ [٧] عن التقبيل فظلاله المقبَّلة ، ونُزِّه أن يبتذل فنسخة المبتذلة ، وإنه عندنا لكتاب عزيز . ولولا الإلاحة [٨] ، على ماضمن من الملاحة ، والخشيةُ على دُجَى مداده من التوزُّع ، ونهار معانيه من التشتت والتقطع ، لعكفت عليه الأفواه باللَّثْم ، والمَوارن [٩] بالانتشاء [١٠] والشَّمِّ ، حتى تصير سطوره لمًى [١١] فى الشفاه ، وخيلانا على مواضع السجود من الجباه ، ولولا ماحظره الدين من القمار لضربنا عليه بالسبعة الفائزة ، والثلاثة التى ليست لحظَّ

---

(١) يتضوع : يفوح .
(٢) فغمنا : ملأ أنوفنا .
(٣) أرج : شذى
(٤) خول : أعطى
(٥) شنوفا : أقراطا
(٦) الحبر : العالم
(٧) جل : تنزَّه
(٨) الإلاحة : الإشفاق
(٩) الموارن : الأنوف .
(١٠) الانتشاء : شم الطيب ونحوه .
(١١) اللمى : سمرة حسنة فى الشفة .

بالحائزة .. فيا شرفه من صَكٍّ بالفخر ، يَبْجَحُ به على النُّظَراء حِيرِىَّ[١] الدهر ، موشّحًا بكل شَذْرة أعذب من سُلاف العنقود ، وأحس من الدينار المنقود ، فجاء كلوائح البروق ، أويوحَ[٢] عند الشروق » .

وإذا مضينا بعد ذلك فى قراءة رسالة المنيح – وهى طويلة – أخذت أمواج الألفاظ الغريبة تتوالى ، حتى ليصعب على أى عالم لغوى أن يمضى فيها دون أن يعود إلى المعاجم يستبين منها مايقرأ لا من حين إلى آخر ، بل مع كل سجعة ، بل مع غير لفظ فى كل سجعة ، وكأنما كان يطلبه طلبا فى سجعاته ، أوكأنما كان يعده زينة ينبغى أن لاتخلو منه سجعة . وهو لذلك يملأ الرسالة بالألفاظ الغريبة المبعدة فى الإغراب مما قرأه فى الشعر القديم وفى كتب اللغة ، ولا يهمه أن تكون الكلمة مما دُوِّنَ فى المعاجم ، بل لعله كان يطلب ذلك استكمالا لغرابتها ، ومن هنا تصبح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة . ولم يكن يكتفى بذلك فى بعض رسائله ، فقد كان يضيف صعوبة ثانية هى حشد ألفاظ المصطلحات العلمية وخاصة مصطلحات العلوم اللغوية على نحو مانقرأ فى رسالته المعروفة برسالة الإغريض وهو ماينشق عنه الطلع من الحبيبات ، والرسالة موجهة أيضا إلى أبى القاسم المغربى وفيها يقول :

« حرس الله سيدنا حتى تُدْغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء .. وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غَدٍ وأمس ، وجعل الله رتبته التى هى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فى أنها لاتنخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت عُرف شانى ، وإن غبت لم يُجْهَل مكانى ، كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء ، إذا قلت زيْدُ أقبلْ ، والإبلُ الإبل ، بعد ماكنت كهاء الوقف ، إن أُلقيتْ فبواجب ، وإن ذُكرت فغير لازب[٣] ، إنى وإن غدوتُ فى زمن كثير الدَّدِ[٤] كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتتْ بالمنكر ، مع إلْفٍ يرانى فى الأصل كألف الوصل ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت[٥] الرصين ، فهى لاتثبت على طريقة ، ولاتُدْرَكُ لها صورة فى الحقيقة »

وهو يدعو لأبى القاسم أن تظل تحرسه عناية الله إلى أبد الآبدين أوكما يقول إلى أن تدغم الطاء

---

(١) يبجح : يفخر . حيرى الدهر : أبد الدهر .
(٢) يوح : اسم الشمس .
(٣) لازب : لازم .
(٤) الدد : اللهو واللعب .
(٥) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد .

فى الهاء وهى لاتدغم فيها أبدا ، إذ الطاء حرف مجهور الصوت – كما يقول – والهاء حرف مهموس لايكد صوته يبين ، فهما من طبيعتين مختلفتين ولذلك لايدَّغمان أبدا ولايتحدان كالأمس والغد . ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب فى الدولة ، كرتبة الفاعل والمبتدأ فى النحو ، إذهما بسبب رفعهما فى أعلى الرتب . ويدعو له أن لايلحقه خفض فى رتبته كالفعل لايلحقه خفض ولاجرٌّ أبدا . ويقول إن أبا القاسم جعله معروفا رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فمكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أولم تذكر ، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فمكانه محفوظ ، فتقول : محمد أى يامحمد ، وتقول كتاب الأدب أى هذا كتاب الأدب . ويقول إنه كان قبل أن يضعه أبو القاسم فى منزلته الرفيعة كالهاء التى تلحق ببعض الكلمات فى الوقف ، مثل : لِمَ تقول فيها لمه ، فهى تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن فى الكلمة . ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو مايلاحظ فى هاء العدد أوتائه من ثلاثة إلى عشرة ، فإنها تلحق عددها مع المذكر وتطرح مع المؤنث ، وكان القياس فى العربية العكس . ولايكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه ، تذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط فى درج الكلام . ويقول إن حاله كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا فى لغة تميم ، فيقولون فى أَنَ عَنْ ، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أوكما يقول « بين بين » وقد تسهَّل تماما فتصبح حرف لين مثل سال فى سأل ، وقد تحقق وخاصة فى أول الكلمات فلا تسهّل مثل أمر ، فهى كما يقول أبو العلاء لاتثبت فى العربية على طريقة .

وأبو العلاء بذلك يصعِّب نثره على قارئه ، بحيث لايستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه ، وليس ذلك فحسب ، فإن هذه القطعة قَ الرسالة لايستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمى النحو والصرف ، وقد مضى فى الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلاحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان . وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل ، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطئ بدار المعارف . وتتكاثر فى الرسالة المعارف عن المرأة وخليها ولابأس من إيداعها شيئا من التاريخ . وكل ذلك يصعِّبها : سجع وأوابد لفظية وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى . وكأنما استأثرت بالشطر الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريضية . وتقل المصطلحات العلمية فى بقية رسائله غير أنه لايزال يستظهرها فيها من حين إلى حين ، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء فى عصره ، فكان يسوق إليهم هذه

المصطلحات تصويرًا لمهارته البيانية . وتحفل الرسائل بنقد خلقى واجتماعى وسياسى وأدبى ، وأكثرها فى الثناء على من يكتب إليهم ، وبينها رسائل شفاعة وتهنئة وتعزية وشوق ، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله فى فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبى طاهر المشرَّف بن سُبَيْكة الحلبى :

« شوق إلى سيدى الشيخ شوقُ البلاد المُمْحلة ، إلى السحابة المُسْحلة[١] ، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة ، بالأمواه الغريضة[٢] ، وتشوُّفى لأخباره تشوُّفَ راعى أنعام[٣] أجدب فى عام بعد عام ، لبارق[٤] يمان ، هَوْلُه مرتقب مُمان[٥] . وأسفى لفقده أسف وَحْشِيَّة[٦] ، رادت[٧] بالعشيَّة ، فخالفها السِّرحانُ إلى طَلاً[٨] راد فحار[٩] فهى تطوف حول أَميل[١٠] ، وترى صبرها ليس بجميل . وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدْى الوالدة ، والمقسم بالملح لبنى خالدة وانتظارى لقدومه انتظار تاجر مكة وَفدَ[١١] الأعاجم ، وربَّ الماشية ظهورَ النَّبْت الناجم[١٢] » .

وبدون ريب تُعَدُّ رسائل أبى العلاء الشخصية فى الذروة من البلاغة ، وهو دائما يُعْنَى فيها بالسجع إلا قليلا ، وقد يلتزم فيه مالا يلزم كما فى هذه القطعة ، فإن السجعتين فيها تتفقان لافى الحرف الأخير فحسب المقابل للروى فى الشعر ، بل فى حرفين أو ثلاثة حروف ، ودائما نلتقى فى رسائله بالألفاظ الآبدة الممعنة فى الغرابة وإن لم تمعن فيها بهذه القطعة . وهو يستغل فى سجعاته معارفه الكثيرة التاريخية وغير التاريخية على نحو مايلقانا فى هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يتعاقدون ويتعاهدون على الملح ، وذكر عهدًا لهم أقسموا فيه بالملح لبنى خالدة وهى بنت أرقم أم كردم وكريدم ابنى شعبة الفزاريين . والجناس الناقص مثل : « الممحلة والمسحلة » واضح فى القطعة ، وكان يوشى سجعاته به وبغيره من محسنات البديع وخاصة الطباق والتصاوير .

---

(١) المسحلة : الممطرة
(٢) الأريضة : الطيبة . الغريضة : المبكرة
(٣) الأنعام : الابل .
(٤) البارق : السحاب يلمع فيه البرق ، وجعله يمنيا حتى لايخلف مطره
(٥) ممان : متطاول
(٦) يريد بقرة وحشيه
(٧) رادت : ذهبت تطلب الكلأ
(٨) الطلا : ولد البقر . السرحان : الذئب
(٩) حارهنا : تحير
(١٠) أميل : كثيب عال
(١١) يريد : قدوم وفود الحجيج الأجانب
(١٢) الناجم : الذى لاساق له

(ب) رسائل متنوعة

طبيعى أن تكثر الكتابات الشخصية على ألسنة الأدباء ، شاكرين صنيعا أو مهنئين على منصب كبير أو معاتبين أو مثنين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألمَّ بأصدقائهم أو فى فقيد عزيز ، وتارة يؤبِّنون وتارة يبكون وقد خنقتهم العبرات . وكثيرا ما كانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطّغرائى الشاعر الكاتب والغَزّى إبراهيم بن عثمان الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، ويقول العماد الأصبهانى : «كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المودَّة الوكيدة » ويسوق العماد للغزى رسالة اعتذار كتب بها إلى صاحبه جاء فيها [١] :

لسان الحسود – أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا ، ولَبْيضة المجد حاميا – إذا علق بِعِرْض الكرام كان كالنار فى المندلىّ[٢] ، يبوح بسرِّ طيِّه الخفىّ .. فإن وقع من السفهاء إفك فداعيته ما ظَهر لهم من انتمائه ، وانتساب مُزْنته إلى سمائه » .

وانتخاب الغزى لألفاظه واضح ، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر ، وهو يعنى فيها بالتصاوير ، وكان خصب الخيال ، ومرت بنا فى ترجمته روائع طريفة من أشعاره . وكان ابن منير الطرابلسى الذى ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شَيْزر فى الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها آبق ، وحاول صديق له هو زين الدين بن حليم أن يسترجعه إلى دمشق فكتب إليه يستدعيه ، وأجابه ابن منير برسالة طويلة معتذرا يقول فيها [٣] :

« إن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوةَ الاندمال ، وقُروحها تزداد قَرْحا مع الحلِّ والتِّرحال ، وبين جوانحى من الأين[٤] ، لما لقيتُ بدمشق من الغَبْن ، مالايحلُّه إلا عَقْدُ الكفن ، ولايرفع حَدثه إلا التيممُ بصعيد[٥] المدفن . ويلقاك فلان وفلان من كل ذى خَلْق دَميم[٦] ، وخلق ذميم ، وأصل لئيم ، وفرع زَنيم[٧] ، ووجه لَطيم ، وقفًا كليم[٨] ، وهلم جَرّا من عذاب أليم ، وصِراط فى الود غير مستقيم » .

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة ، وكما كان شاعرا بارعا كان كاتبا بارعا ، تواتيه الكلمة وتنزل فى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٢٧

(٢) المندلىّ : عود الطيب

(٣) الخريدة (قسم الشام) ١/٩٢

(٤) الأين : العناء .

(٥) الصعيد : التراب

(٦) دميم : قبيح . ذميم : مذموم

(٧) زنيم : دعىّ

(٨) كليم : جريح

مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذى لاتطول عباراته ، فإذا الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها فى الجرس وحسن الأداء . ويورد العماد فى الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه وبين أسامة بن منقذ ، ويذكر أولا كتاب القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة ، وله يقول من رسالة طويلة مادحا مثنيا على بلاغته ، متحدثا عنه بضمير الغيبة[١] :

« ماعسى أن يقول مطريه ومادحُه والفضل نُغْبة من بحره الزاخر ، وقطرةٌ من سحابه الماطر ، تفرَّد به فما له فيه من نظير ، وسبق من تقدَّمه فى زمانه الأخير ، فتق عن البلاغة أكمامًا تزينت الدنيا منها بالأعاجيب ، وأتى بآياتٍ فصاحةٍ كادت أن تُتْلى فى المحاريب ، إذا استُنْطقتْ ازدحمتْ عليها العقول والأسماع ، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع . . هو سحر لكنه حلال ، ودُرٌّ إلا أن بحره حُلْوٌ سلسال » .

ونمضى إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم فى دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له بين شعراء المديح ، وله – كما أسلفنا – كتاب فى رسوم الكتابة الديوانية ، وبه كثير من رسائله الرسمية ، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية ، سماه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » وله بجانبه كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه « زهر الربيع فى الترسل البديع » وعنه ينقل كثيرا القلقشندى فى الجزء التاسع من صبحه ، ومما نقله عنه رسالة فى التهنئة بعيد الأضحى جاء فيها[٢] :

« جعله الله أبرَكَ الأعياد وأسعدها وأيمنَ الأيام وأمجدَها ، وأجملَ الأوقات وألذَّها وأرْغَدها ولابرح مسرورا مستبشرا ، منصورًا على الأعداء مقتدرا ، مسعودا محمودا ، معانا بملائكة السماء معضودًا ، مهنَّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة ، والقوة والناصر ، والعمر الطويل الوافر . . ألبسه الله من السعادة أجمل حُلَّة ، ومنحه من المكارم أحسن خَلَّة » .

وكان الشهاب محمود يعنى بتزيين سجعاته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس ، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى فى قوله : « مهنَّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة » .

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتبا ، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافعى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨ ، وفيها يقول[٣] :

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/٥٤١

(٢) صبح الأعشى ٩/٤٦

(٣) انظر ديوان عمر بن الوردى ، طبع الجوائب فى مجموعة سنة ١٣٠٠هـ ص ١٦٣

« بلغنى انهدادُ الطود الشامخ ، وزوالُ الجبل الراسخ ، الذى بكته السماء والأرض ، وقابلت فيه المكروهَ بالندب وذلك فرض ، فشَرِقَتْ[١] أجفان المملوك بالدموع ، وأُحْرق قلبه بين الضلوع ، فالعلوم تبكيه ، والمحاسن تعزَّى فيه ، والأقلام تمشى على الرءوس لفقده ، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده . . ولاخاصٌّ إلا حزن قلبه ، ولعامّ إلا طار لُبُّه » .

وكان يجنح فى نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية ، وقد تصنع فى هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية : المكروه والندب والفرض ، وأيضا فإنه كان يعنى بجلب صور مختلفة من التوريات ، وواضح أنه ورَّى هنا بالمصطلح الفقهى : الندب عن معناه الحقيق وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسنه . وجعل الأقلام تمشى على رءوسها حزنا وهى فعلا تمشى على رءوسها أو بعبارة أخرى تكتب برءوسها ، فاستغل ذلك فى تعزيته .

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سِكِّينا أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله[٢] :

« المملوك يُنْهى وصول السكِّين التى قطع بها أوصال الجَفا ، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البُرْءُ والشفا ، وتالله ماغابت إلا وصلت الأقلام من تقشيرها إلى الحَفا .. ماشاهدها موسى إلا سجد فى محراب النِّصاب[٣] ، وذلَّ بعد أن خضعت له الرءوس والرِّقاب .. أُنْمُلة صبح تقمَّعت بسواد الدجى ، فعوَّذتُها بِـ (الضحى والليل إذا سَجَا) .. تَطْرف بأشعتها الباهرة عين الشمس ، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس » .

والتكلف واضح فى القطعة ، فقد ذكر الجفا أى البعد ، وفكر فى سجعة معه فجاء بالشفا والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة فى تشذيب الأقلام ، وكل ذلك تكلف ، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاَّق . وكان نصاب السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى ، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين ، وورى أيضا بمواظبة الخمس إذ لايريد المعنى المتبادر من مواظبة الصلوات الخمس ، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام .

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظل نقرأ رسائل شخصية متعددة فى تراجم الأدباء ، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة فى معاتبة[٤] :

---

(١) شرقت : غصَّت .
(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢٥ ، ٥٢٧
(٣) نصاب السكين : مقبضها
(٤) نفحة الريحانة للمحبى ٢٤٧/١

« الصديقُ لفظ على الألسنة موجود ، ومعناه فى الحقيقة مفقود ، فهو كالكبريت الأحمر ، يُذكر ولا يُبْصَر ، أو كالعنقاء والغول ، لفظ يوجد بلا مدلول . وهذه شيم غالب أبناء الزمان ، من الأخلاء والإخوان ، فمثلهم . . كلمع السراب ، المستحيل فيه الشراب ، أو كالخيال الذى يبدو فى المنام ، وهو فى الحقيقة أضغاث أحلام » .

ويسوق المحبى فى نفحة الريحانة رسائل مختلفة لأبيه وجدِّه ، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية . وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسى الصوفى ، وله يقول متودّدًا مثنيًا مشيدًا بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى [١] :

« مولاى الذى سار فى بروج الفضل مسير الشمس ، وقامت فضائله فى جسم العالم مقام الحواسِّ الخمس ، لازال فى السكون والحركة ، مرافق اليمن والبركة ، يفرح به كل قطر ينازله ، كأنه البدر والدنيا مَنازله ، ومن شايعه مسعودٌ يومه وغده ، وله من العيش أهناه وأرغده . . أنا شعبة من دَوْحتك [٢] ، وغصن من سَرْحتك [٣] ، بل نَبْتٌ سقتْه أياديك ، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك » [٤] .

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التى رأيناها فى أيام المماليك ، فهو يعتمد دائما على السجع ، ويوشى بالبديع ومحسناته .

٣

المقامات

كان لبديع الزمان الهمذانى فضل السبق الى استحداث فن المقامات فى العربية ، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لايزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كى يسبغوا عليه شيئا من عطائهم يعينه على سدِّ حاجاته فى الحياة . وجعل له راوية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى . وتبعه الحريرى فأوفى بهذا الفن على الغاية ، سواء من حيث جمال القَصِّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوى والأديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته . وطبيعى أن لاتعرف الشام – مثل بقية البلدان العربية – المقامات قبل بديع

---

(١) نفحة الريحانة ١٣٩/٢

(٢) الدوحة : الشجرة الكبيرة المتشعبة

(٣) السرحة : الشجرة الطويلة العظيمة

(٤) الغوادى : السحب

الزمان ، بل أيضا قبل الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة ، ويبدو أنها ظلت طويلا لاتعرفها أو على الأقل لاتحاول محاكاة الحريرى وبديع الزمان فيها ، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغولية حتى منتصف القرن السابع الهجرى ألهاها عن هذا الفن ، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها لأيام المماليك وجدناها تعنى به ، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثانى من القرن السابع ، وهى نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريرى ، إذ لاتعتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قَصًّا حواريا ، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار ، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض المسائل فى العلوم المختلفة ، من ذلك مقامة فى المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين بن عبيد الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضا مقامة فى مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قُرْناص الحموى المتوفى حوالى سنة ٦٧٢ . وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمسانى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق ، وفيها يصور شغفه باللهو والتنزه فى الرياض ولقاءه فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا ، وهو يفتتحها على هذا النمط[١] :

« لم أزل مذ بلغت سن التمييز ، أتولّع بنظم الأراجيز ، ومذ شبَّ عمرى عن الطَّوْق ، مُغْرى بالغرام والتَّوْق ، وأهيم بالشَّمول[٢] والشمائل ، وأشرب فى زجاجة صفراء كالأصائل ، وأقدم على رشف ثغور البيض .. وأتنزه فى كل ناد وواد .. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض[٣] ، ووَلجت[٤] بين حياض ورياض » .

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذى مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة[٥] العشاق ، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف . ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة . وسنخصه بترجمة قصيرة ، وللصفدى معاصره الذى مرت ترجمته مقامة سماها « رَشْف الرَّحيق فى وصف الحريق » وصف فيها حريق دمشق الذى أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها لسنة ٧٤٠ ومن قوله فى تلك المقامة الملتاعة[٦] :

---

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفرى (طبع المطبعة الأدبية ببيروت) .

(٢) الشمول : الخمر .

(٣) الغياض : أماكن الشجر الملتف

(٤) ولج : دخل

(٥) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/٥٦٥

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ١/٢٠١

« سألت عن الخبر ، ممن غبر ، فقال إن الحريق وقع قريبا من الجامع ، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عَقائقُ[١] اللهب اللامع ، فبادرت إلى صَحْنه والناس فيه قطعة لحم ، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم ، ورأيت النار وقد نشرتْ فى حداد الظلام مُعَصْفراتِ[٢] ذوائبها ، وصعدت إلى السماء عَذَباتُ ذوائبها . . وعلت فى الجو كأنها أعلام ملائكة النصر ، وكان الواقف فى الميدان يراها وهى (ترمى بشررٍ كالقصر) ، فكم زمر أضحت لذلك الدخان جاثية ، وكم نفس كانت فى النازعات وهى تتلو (هل أتاك حديث الغاشية) ولم تزل النار تأكل مايليها وتفنى مايَسْفلها ويعتليها » .

وواضح فى سجعاته طلبه للجناس . فهو يجانس بين الخبر وغبر ، والجامع واللامع ، واللحم والشحم ، ويمضى فى مثل هذه الجناسات الناقصة ، واشتهر لزمنه بالتصنع الشديد للجناس . وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة ذوائبها مرة من الذوبان جمعًا لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر فى الرأس جمع ذؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهى أطراف العمائم التى تطرح عليها ، وتكلف أشد التكلف حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذى إبتُليت به دمشق وأهلها بلاء عظيما . وإنما أغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (ترمى بشرر كالقصر) وهى فى وصف جهنم ومايتصاعد من شررها ووقودها كالقصر فى ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق . وقد مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو ، فذكر (الزمر) أى الجماعات و (الدخان) و (الجاثية) من الجثو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول ، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى فى سورة (الغاشية) والغاشية القيامة .

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضوعا لها وصف حريق دمشق ، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها القَصّ والحوار ، وكأنها تختص بموضوع أدبى تعالجه . وغلب عليها ذلك أيضا فى أيام العثمانيين ونلتقى فى نفحة الريحانة للمحبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد الرحمن بن محمد الدمشقى من بنى النقيب ، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو [٣] .

« نَرْجِسٌ نَعْته الفتور ، وورد كأنما انتزع من أوجه الحُور .

---

(١) عقائق : جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه به الصفدى اللهب

(٢) معصفرات : مصبوغة بالعصفر ، وهو صبغ أصفر

(٣) نفحة الريحانة ٢/٣٥

وشَقيقٌ كأنه أقداح العقيق[١] ، قد رسب بقرارتها مِسْكٌ فَتيق
وآذَرْيون [٢] كأنه مداهن عَسْجدٍ ، على سواعد زبرجد
وسوسن كبياض السوالف ، أو جياد [٣] الوصائف
وقَرَنْفلٌ كأنما توقَّد بالجَمْر ، وانعقد من الخمر »

ويظل طويلا فى وصف الأزهار ، ويخرج منها إلى وصف الأطيار ، بمثل هذه الأسجاع المليئة بالتشبيهات والاستعارات .

وروى المحبى لعبد الغنى النابلسى الصوفى الذى مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق عثرا فيها على قصر عالى البنيان فدخلاه ، يقول[٤] :

« فصعدنا إلى قصر مَشيد[٥] ، مزخرف الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشِّيد[٦] ، فيه الغرف الرفيعة ذات التزيين ، والمقاصير المصنوعة لقاصرات[٧] الطَّرْف عِين . قد طَلَّت شبابيكه على تلك الأرجاء الموفقة ، والجداول المتدفقة ، وأرضه مفروشة بأفخر الوشى والديباج ، وقد أُطلقت فيه مَباخرُ الطيب فزاد فى الابتهاج .. فجلست أنا وصاحبى على تلك الأرائك المنوعة[٨] ، والفرش المرفوعة ، نتناشد الأشعار ، ونتشبَّث بأذيال الأفكار » .

ويلقاه هو وصاحبه رفيق ، فيسأله أين كنت ؟ ومن أين توجهت ؟ ومايلبث أن يقول له : « ما ذلك القصر الموصوف سوى جُبَّتى هذه وثوبى هذا الصوف ، والشبابيك جيوبه وأطواقه ، ولا عجب أن نَفَحْت فيه مباخر الطيب فإنها قراطيسه وأوراقه » . وكأن كل مافى المقامة رموز صوفية جلاها عبد الغنى النابلسى فى تصاوير الرياض والقصر وتهاويله . وحرى بنا أن نقف قليلا عند ابن الوردىّ أهم كتَّاب المقامة الشاميين .

---

(١) العقيق : حجر كريم أحمر . فتيق : فائح .
(٢) الآذريون : زهر شديد الصفرة . والعسجد : الذهب
(٣) جياد هنا : جمع جيد أى عنق .
(٤) نفحة الريحانة ٢/١٥٢ وما بعدها
(٥) مشيد : عال مرتفع .
(٦) الشيد : كلّ ماطُلى به البناء من جصٍّ وغيره
(٧) قاصرات الطرف : خجلات حييات . عين : جميلات واسعات الأعين .
(٨) الأرائك : مقاعد منجدة،المنوعة : أى عن الناس

ابن[١] الوردىّ

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى ، ولد فى المعرة بلدة أبى العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها ، ويقول ابن حجر فى الدرر : بل نشأ بحلب وهى حاضرة إقليم المعرة . وخاصة على قاضيها وفقيهها ومفتيها الشافعى شرف الدين البارزى . وتنقل فى بلاد الشام يأخذ عن شيوخها ، وعُرف فضله فى الفقه والفتوى ، فولاه ابن الزَّمْلكانى قاضى قضاة الشام قضاء حلب ، وكان شاعرا . وله فى ابن الزملكانى مدائح كثيرة ، اعترافا منه بصنيعه . ورأى ابن الزملكانى فيما بعد عزله عن حلب وتوليته قضاء منبج ، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولّى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها ، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب ، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩ . وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا ، فقد نظم كتاب الحاوى فى الفقه الشافعى فى منظومة بلغت أكثر من خمسة آلاف بيت ، وله مصنفات لغوية ونحوية ، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى . وهو معدود فى شعراء القرن الثامن النابهين ، ويقول ابن شاكر : « أجاد فى المنثور والمنظوم ، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية » . وديوانه كبير وهو مطبوع فى الآستانة من قديم ، وله بعض رباعيات وبعض موشحات ، أنشد منها السبكى فى ترجمته ، وله خمس مقامات ، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه ، وفى رأينا أن نثره أروع من شعره ، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبدع ماله من كتابات أدبية ، ونقصد مقاماته .

وأولى المقامات فى الديوان المقامة الصوفية ، ومنها يُجْرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدس وبين عشرة من الصوفية فى مقدمتهم شيخ كبير ، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية ، وأشركوا معهم فى الحديث هذا الوافد المعرى ، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم والشيخ يجيب . وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لايتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول : « إن المتصوفة اليوم أصحاب

---

(١) انظر فى ابن الوردى وترجمته طبقات الشافعية للسبكى ٣٧٣/١٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٢/٣ وفوات الوفيات ٢٢٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/١٠ والبدر الطالع ٥١٤/١ والشذرات ١٦١/٦ وديوانه ومعه مقاماته ورسائله مطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ للهجرة .

أكل وشرب ونوم ، يروون الأقوال ولايتبعون الأفعال ، وافقوا أسلافهم ملبسًا ، وخالفوهم أنفسا » . والمقامة طريفة فى عرضها لأحوال الصوفية فى تلك الأيام ، وحرى بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى فى مقاماته ، يقول[١] :

« حكى إنسان ، من معرَّة النعمان ، قال : سافرت إلى القدس الشريف ، سفر منكر بعد التعريف ، فاجتزت فى الطريق بواد وقانا لفحة الرَّمضاء[٢] ، وقال : حكمتَ على الوادى الذى تروع حصاه حالية العَذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء ، وإذا عين كعين الخنساء تجرى على صخر ، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولافخر ، فرَّويت كبدَ صادٍ[٣] من تلك العين ، ولكن نُغِّص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين » .

وقد تصنع ابن الوردى فى أول مقامته لمصطلح التعريف والتنكير فى النحو ، ولم يلبث أن اقتبس فى وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر فى وصف واد للمَنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول

وقانا لفحةَ الرَّمضاءِ وادٍ سقاه مضاعَفُ الغيثِ العَميمِ
تروع حَصاه حاليةَ العَذارى فتلمسُ جانب العقد النظيمِ

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها على أخيها صخر فاستغلَّ ابن الوردى ذلك فى التورية عن هذه العين الحقيقية التى تجرى مياهها على الصخر ، ويقول إن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله فى كربلاء وطلبه الماء من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها . ولم نمض فى قراءة المقامة لنراه وهو يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال ، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة .

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الأنطاكية ، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حَوله ، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب ، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم .

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية ، ومنبج إحدى القرى الكبيرة فى حلب ، وفيها يحكى أيضا شخص من المعرة أنه دخلها فرثى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من دثور . وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها . ويلم ابن الوردى بمدرستها النورية ، فإذا مدرسها

---

(١) الديوان (فى مجموعة طبعة الجوائب) ص ١٣٣ (٣) صاد : عطشان شديد العطش
(٢) الرمضاء : شدة الحر

بقاضى حدث السن ، فظن أنه ليس بشىء ، فلما سأله عن حاجته قال : « نحن عشرة ذوو نسب وأولو علم وأدب ، وقد أنشد كل منا بيتى شعر ، سامها[١] فضل سعر ، وأقام وزنها ، وقال إنهما وإنهما ، وأنا رسول أصحابى إليك لتنصف بيننا وقد دُللت عليك » فقال له : قل ماأردت أن تقول ، فأخذ يعرض عليه أبياتا فى الغزل وغير الغزل ، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة . وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس ، وأطال شكره .

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقى شخصٌ معرِّىٌّ أميرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة ومايجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس ، وينهاه الأمير عن الاشتراك فى هذه البدع المحرمة ، وينوه بقاضى القضاة ابن الزَّمْلكانى الذى أمر بإبطالها وشدد فى النكير عليها ، ويدعو له قائلا :

« لازال نَداه[٢] مثل حرف النداء، كفيلا بضم الأقربين والبعداء، من وُصل به نال عُرْفا [٣] ، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفا ، حتى يكون علمه علما منصوبا ، وعواطفه للمعارف خبرا مبتدأ به منسوبا ، ولا برح مرفوعا بفعل الحسنى ، وسيوف بحوثه ماضية فهى على الفتح تُبْنَى » .

وواضح مدى ماتكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو فى عبارات الثناء على ابن الزملكانى وسجعاته ، فلازال ابن الزملكانى مثل حرف النداء فى النحو ينادى به القريب والبعيد ، والتابع مفرد التوابع ، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل ، ولذلك ذكر مع التابع العطف ، وجلب من النحو كلمة « منصوبًا » واراد بها ان العلم مرفوع ، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح . كل ذلك حشده فى هذه السجعات القليلة ، ولم يكن يصنع ذلك دائما ولكن من حين إلى حين تلقانا فى نثره هذه الرقع التى تدل على التكلف الشديد .

ومقامته الخامسة فى وصف حريق دمشق الذى وصفه معاصره الصفدى . ومرت بنا قطعة من وصفه ، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم « صفو الرحيق فى وصف الحريق » ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر ، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى فى الموضوع نفسه قوية ، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيرا منه حتى عنوان مقامته وهو « رشف الرحيق فى

(١) سامها فضل سعر . غالى بها فى السعر (٣) العرف : المعروف

(٢) نداه : كرمه

وصف الحريق » . وله رسالة بديعة فى وصف وباء الطاعون الذى فتك بآسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩ ويسميها ابن حجر مقامة ، وتسميتها – كما جاء فى الديوان – باسم رسالة أولى لغياب الرواية والحوار فيها ، ومثلها رسالته التى كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم ، وهى رسالة طريفة .

٤

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ فى خطب المساجد كل يوم جمعة وفى العيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تعن كتب الأدب بتسجيلها ، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء ، غير أنها بقيت منها شظايا ، وأول مايلقانا من ذلك فى الشام خطب الخلفاء منذ معاوية ، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر . وكان القُصَّاص منذ معاوية يعظون الناس ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين : مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعيَّن للقصاص مرتبات [1] خاصة . ويشتهر فى زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حَيْوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقى وكانت له رسائل مليئة بالوعظ . وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثانى وفى مقدمتهم الأوزاعى صاحب المذهب المشهور . وبالمثل ظل الوعظ حيًّا مزدهرا فى القرنين الثالث والرابع ، ويلقانا فى حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباتة ، وسنقف قليلا عند خطبه ، ولانلبث أن نلتقى بأبى العلاء ، والعظات وتمجيد الله والزهد فى متاع الدنيا يكثر فى أشعاره وكتبه ، ومانفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول : « إن من هذه الأوراق ماهو تمجيد لله الذى شرف عن التمجيد .. وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا » . وله بجانب اللزوميات ديوان ثان فى العظة والزهد والاستغفار سماه : « استغفر واستغفرى » سقط من يد الزمن ، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت . وكان له فى النثر دعاء

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى
(طبع دار المعارف – الطبعة التاسعة) ص ٧٥

يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة ، وكتاب يعرف بالسجعات العشر فى الوعظ ، وكتاب يعرف بسيف الخطب ، وفيه خطب الجمع والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج ، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة مثل الهمزة والباء والتاء والدال واللام والميم والنون ، لأن الكلام المقول فى الجماعات ينبغى أن يكون لينا سهلا . وله كتاب تاج الحرة ، وهو فى عظات النساء خاصة . وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن ، وبقى من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات ، وسنخصه بحديث عما قليل .

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية فى نفوس الناس ، حتى يجاهدوا فى سبيل الله ، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية . واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم ، منهم بنو العديم فى حلب لعهد نور الدين ، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ ، ومنهم محيى الدين محمد بن الزكى قاضى دمشق وخطيبها ، وهو الذى خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه ، وسنلم بخطْبته .

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المهذب الدمشقى الذى لقيه العماد الأصبهانى – كما يقول بخريدته – بدمشق سنة ٥٧١ وسنلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعَدُّ سبط ابن الجوزى يوسف بن قزوغلى أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجرى حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة . وكان قد نشأ فى حجر جده ابن الجوزى واستمع إلى مواعظه الرائعة التى نوهنا بها فى حديثنا عن العراق ، وطارت شهرته فى الوعظ كما طارت شهرة جده ، وكان يحضر مجلسه القضاة والأشراف والأعيان « ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك ، لاسيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظمى ، وكان له لسان حلو فى الوعظ والتذكار ولكلامه موقع فى القلوب [١] » ويصف أبو شامة مجلس وعظه فى كتابه « ذيل الروضتين » فيقول : « كانت مجالس وعظه من محاسن الدنيا ولذاتها . وكان يزدحم فى مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال فى جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرتُ مجالسه صغرى وكبرى فى الموضعين مرارا ، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفضَّ إلا وشوقه مستمر إلى عودته فى الأسبوع الآخر . وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبْسَطُ السجادات والحُصُر والبسط فى كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة فى يوم الجمعة ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٩/٧

ويبيت الناس ليلة كل سبت حَلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بمجلسه ومسابقة إلى الأماكن »[١] .

ومن كبار الوعاظ فى أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسى ، وله حوار طريف مع إبليس سماه « القول النفيس فى تفليس إبليس » وهى رسالة صغيرة ، أراد بها أن يُعْلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى مايتخبطون فيه من الغى . وأطرف من هذه الرسالة رسالة له سماها « كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار » وسنتحدث عنها بين الرسائل الأدبية . ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة ، ويقول ابن حجة : « لما فوضت إليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر فى تلك الجمعة لأجل سماع خطبته ، وكانت براعتها (فاتحتها) : الحمد لله الذى أيد محمدا بهجرته ، ونقله من أحبِّ البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته[٢] » . ولاريب أن الخطابة الدينية اطرد لها ازدهارها أيام العثمانيين ، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويرا واضحا . ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة .

(١) خطب ابن[٣] نباتة الفارقى

ابن نباته الفارقى هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد ، وفيه يقول ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة . وقع الإجماع على أنه ماعُمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمدانى وكان كثير الغزوات ، ولهذا أكثر ابن نباتة من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد سنة ٣٣٥ وتوفى سنة ٣٧٤ . وخلفه فى الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفيده أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠ . وطُبعت خطبهم جميعا مرارا ، وطبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمَع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ، ومن قوله فى الخطبة الثالثة لشهر صفر ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم :

« أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل ، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل ، ولا تطمعوا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل ، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم ياعباد الله

---

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩

(٢) خزانة الأدب ص ٢٠

(٣) انظر فى ابن نباتة الفارقى ابن خلكان ١٥٦/٣ وعبر الذهبى ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣

الرحيل الرحيل ، هو الموت الذى مافيه فوتٌ ولاتعجيل ، ولايقبل الله فيه الفداء ولايرضاه من بديل ، كم ألحق عليلا بصحيح وصحيحا بعليل ، وكم أخذ قريبا من قريب وخليلا من خليل ، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل ، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمر إلا القليل ، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشبيه والمثيل » .

ولغة ابن نباتة فى خطابته عذبة سائغة ، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر ، فقد عم السجع حتى فى الكتابات التاريخية كما مربنا عند العماد الأصبهانى ، وسجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه ، لسهولته وخفته وبراعته فى صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد ، ويقول فى الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان :

« عباد الله إن شهركم هذا شهر البركات والسرور ، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور ، والتجارة فيه لن تبور .. عباد الله ! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور ، وأنهاكم أن تُحْبطوا صيامكم بالغَيْبة والنميمة وقول الزور .. يامفطرا بالحرام لأى شىء يكون الإفطار والسحور ، ياغافلا عن طاعة الله ماهذه الغفلة والفتور ، ياهائما فى تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور .. يامائلا إلى زهرة الدنيا ، ومالحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، ياعادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النُّشور » .

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتة يعظ الناس فى أيام الجمع ، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه وخطب على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وبدون ريب كان يتأثر فى خطابته ببيانه الرائع .

(ب) الفصول[1] والغايات

هذا كتاب جميعه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلىّ الأعلى ، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه ، وقد أثار ضجة حوله منذ ظهوره ، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة[2] للقرآن الكريم ، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذى مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة[3] ، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب :

---

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زناتى) وقد نشر القسم الأول منها وينتهى فى الغايات إلى حرف الخاء .

(٢) راجع سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية القصر ١/١٣٠ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٤٢٦

« الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات » وهو لايريد محاذاة القرآن فى أسلوبه وإنما يريد محاذاته فى تمجيد الله وتحميده والثناء عليه ، وهو نفسه يقول فى كتابه : « علم ربنا ماعلم ، أنى ألفت الكلم ، آمل رضاه المسلَّم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهَبْ لى ماأبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغراب » . والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك ، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى حتى ليقول[١] :

« لو نقلتُ مياه اللُّجَج على منكبى فى قُداف[٢] ، وأفرغته على مناكب الجبال ، وجررت كُثْبان الأرض وصَرائمها[٣] فى جرٍّ أو مِشْآةٍ[٤] ، فألقيتها فى الخُضَر[٥] الدائمات ، حَفَدًا[٦] لله كنتُ أحدَ العجزة المقصِّرين ، ولو أُذن لى وأُيِّدْتُ فاتبنيتُ مَراهص[٧] من الثَّرى الأسفل إلى الثُّرَيَّا ، ومن الوَتِد ، المتَّخَذَ من عود إلى وَتِد السُّعود[٨] ، لم أؤدِّ مايوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصُر الصلاة ، وأُدانى بين الركعات » .

وهو يقول : مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى ، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه فى جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال ، وحتى لو جر كثبان الأرض كثيبا وراء كثيب فى زنابيل وألقاها فى لجج البحار تقربا إلى ربه ، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعض ، حتى يصل إلى وتد السعود ، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ماتوجبه تجلة الله وعظمته . وإنه ليصيح مبتهلا إلى ربه فى جزع لايدانيه جزع : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهَبْ لى عينين كأنهما غمامتا شَتِىٍّ[٩] تَبِلان[١٠] الصباح والمساء[١١] » إنه سيظل ماعاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه . ولهذه الصيحة أخوات كثيرة فى الكتاب ، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفا .

---

(١) الفصول والغايات ٥٩/١

(٢) قداف : جرة

(٣) صرائم : جمع صريمة وهى القطعة من الرمل

(٤) جر ، مشآة : زبيل

(٥) الخضر : اللجج

(٦) حفدا : خدمة

(٧) مراهص : طبقات

(٨) وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة

(٩) شتى : من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر

(١٠) تبلان : تهطلان ، من الوبل وهو المطر الغزير

(١١) الفصول والغايات ٢٥٩/١

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم ، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر ، وكل فقرة تنتهى بالحرف الذى اختاره للفصل ويسمى غاية ، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائما . وليس هذا كل ماصعَّبه على نفسه فى الكتاب ، فقد التزم فى كثير من الفقر أن تشترك سجعاتها فى حرفين أو أكثر على طريقة مانعرف فى لزومياته . والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة ، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة ، حتى يمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته . وعلى عادته فى أشعاره كثيرا مايضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجناس . وكما رأينا فى اللزوميات يكثر فى الفصول والغايات من ذكر المصطلحات العلمية يجلبها من جميع العلوم ، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وفقره فيه ، من ذلك قوله مستظهرًا لبعض مصطلحات علم الصرف[1] .

« لاتجعلنى ربٌّ معتلاً كواو يقوم ، ولامبدلا كواو موقن من الياء ، ولاأحب أن أكون زائدا مع الاستغناء ، كواو جدول وعجوز ، فأما واوعمرو فأعوذ بك ربَّ الأشياء ، إنما هى صورة لاجرس لها ولاغناء ، مشبهها لايحسب من النَّسمات » .

وعلماء الصرف يقولون إن واو يقوم أصلها يقوم فاستثقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ماقبلها واعتلت ، وأن كلمة « موقن » أصلها مُيْقن ، فقلبت الياء واوًا لسكونها وانضمام ماقبلها ، وأن الواو فى جدول وعجوز زائدة لأنهما مشتقتان من الجدل والعجز . ومعروف أن واو عمرو تكتب ولاتنطق تمييزًا للكلمة من كلمة عمر . وكل ذلك يحشده أبو العلاء فى بعض وعظه بل إنه ليحشد كثيرا من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها . وحسبنا ماقدمناه لنأخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات ، وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلا وتحليلا .

---

(١) الفصول والغايات ١/١٤٢

(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحيي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محيي[(١)] الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كانوا قضاة فى دمشق ، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ ، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية ، فلما صارت له حلب ولاه قضاءها ، حتى إذا فُتحت القدس ، وكان محيي الدين حاضرا فَتْحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها فى أول يوم جمعة ، وأعدَّ من كانوا فى حضرته خطبا بليغة يخطبون بها فى هذا اليوم واختار صلاح محيي الدين ، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات فى أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر، ثم شرع فى الخطبة . وقال [(٢)] فيها .

« الحمد لله معزُّ الإسلام بنصره ، ومذلُّ الشرك بقهره ، ومصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدَّر الأيام دولابعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظلِّه ، وأظهر دينه على الدين كله .. أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ..

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالةَّ[(٣)] ، من الأمة الضالة ، وردِّها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة [(٤)] الشِّرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه .. ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصَّكم بهذه الفضيلة التى لايجاريكم فيها مجار ، ولايباريكم فى شرفها مُبار . وهذا هو الفتح الذى فُتحت له أبواب السماء ، وتبلَّجت[(٥)] بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّ به عيْنا الانبياء المرسلون .. فاحفظوا – رحمكم الله – هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى مَنْ تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الرَّدَى ،

---

(١) انظر ترجمة محيي الدين فى طبقات السبكى ١١٠/٢ ، ١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبى ٢٠١/٤ والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦ والشذرات ٣٣٧/٤

(٢) انظر الخطبة كاملة فى ابن خلكان والروضتين

(٣) الضالة هنا : كل ماضل وضاع ، وفى المثل : الحكمة ضالة المؤمن

(٤) إماطة : تنحية وإبعاد

(٥) تبلجت : أشرقت

ورجوع القهقرى .. الله أكبر ، فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر » .

والخطبة طويلة ، وقد اكتفينا منها بهذه الشظايا الرائعة التى تصور فرحة السلمين بهذا الفتح المبين والنصر العظيم ، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية وهجمات خالد والصحابة الأولين ، وما النصر إلا من عند الله .

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن [1] غانم عبد السلام بن أحمد المقدسى الواعظ المشهور لزمنه المتوفى سنة ٦٧٨ ، والكتاب فى ٣٠ صفحة ، ذكر فى مقدمته مايفصح عن موضوعه قائلا : « قد وضعت كتابى هذا مترجما عما استفدته من الحيوان برمزه ، والجماد بغمزه ، وماخاطبتنى به الأزاهير بلسان حالها ، والشحارير عن مقار ارتحالها . وسميته كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار ، وجعلته موعظة لأهل الاعتبار ، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار » . ويقول إنه خرج يوما ليتأمل فى الطبيعة وأسرارها ، وانتهى إلى روضة رقَّ نسيمها وغنَّى عندليبها ، وكان وحيدا وأخذ كل ماحوله يخاطبه بلسان الحال دالا على القدرة الإلهية وحكمة الله فى خلقه وعظيم صنعته ، وسجل من ذلك عظات بليغة على ألسنة الأزهار ثم ألسنة الطير ثم ألسنة الحيوان . وبدأ بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه ، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه ، ثم تركه إلى الأشجار وأحد عشر نوعا من الأزهار استهلها بالورد قائلا على لسانه « أنا الضيف ، فاغتنموا وقتى فالوقت سيف ، أُعطيت نفسَ العاشق وكُسيت ملاحة المعشوق ، وأنا الزائر وأنا المزور ، ومن طمع فى بقائى فإن ذلك زور ، ثم من علامة الدهر المكدور ، والعيش المحرور ، أنى حيثما نبتُّ رأيت الأشواك تزاحمنى وتجاورنى ، فأنا بين الأدغال مطروح ، وبنبال شوكى مجروح . وهذا دمى على عَنْدمى يلوح ، وهذا حالى وأنا ألطف الأوراد ، وأشرف الورَّاد ، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ المراد » .

و ختم ابن غانم الكلمة بالعظة التى يريدها ، وجعل الورد ضيفًا على الطبيعة ، لأن مدة بقائه فيها قصيرة ، واستغل ماينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة العيش لابد أن تجمع إليهم شيئا من مرارته فليست الدنيا وردا خالصا ولا حياة لإنسان فيها دائما

---

(١) انظر فى ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان لليافعى ١٩٠/٤ والشذرات لابن العماد ٣٦٢/٥ .

مشرقة زاهية بل لابد من ظلمة تغشاها ، بل هى مزيج من خير وشر وأمل ويأس وسرور وحزن ، وحرىٌّ بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى يبلغ مأموله . ويقول على لسان شجر البان الذى طالما ذكر المحبون فى لينه وتمايل أغصانه محبوباتهم .

« انظر إلى الورد وقد ورد ، وإلى البرد وقد شرد ، وإلى الزهر وقد اتّقد ، وإلى الحَبِّ وقد انعقد ، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد ، وإلى اختلاف المطاعم ومشربُها قد اتحد ، واعلم أن خالقها أحد ، وصانعها صَمَد ، وموجدها بالقدرة قد انفرد ، لايشاركه فى ملكه أحد ، ولايفتقر هو إلى أحد (لم يَلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد) .

وهى عظه بليغة على لسان البان ، فالربيع أقبل ، وأقبل الورد معه ، وشرد الشتاء والبرد : وأضاء الزهر بألوانه واتقد ، وحب الثمار قد انعقد ، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها ، ودبت فيها نضرة الحياة ، ومأأعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بماء واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض ، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التى لايشركه فيها أحد ، إنه واحد صمد ليس كمثله شىء وهو على كل شىء قدير .

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيار ، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول :

« أنا العاشق الولْهان ، أنا الهائم اللّهفان ، إذا رأيت فصل الربيع قد حان ، تجدنى فى الرياض فرحان ، وفى الغياض [1] أردد الألحان . وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لى عيدان [2] ، وانت تحسبنى فى ذلك عاتبا ، لا والله العظيم ولست فى يمينى حانثا ، أنا أنوح حزنا لاطربا ، وأبوح ترحا لافرحا ، لاأجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها ، ولاخضرة إلا تبلبلت على زوالها ، لأنى مارأيت قط صفوة إلا تكدرت ، ولاعيشة حلوة إلا تمررت ، فقرأت فى تمثال العرفان ، كلٌّ من عليها فان » .

والهزار فى أول العظة فرح بمقدم الربيع ، وسرعان مايفكر فى انتهائه ، فيندب وينوح ، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد ازدهارها . ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة ، فإذا كل مافيها من صفاء لابلبث أن تغشاه كدرة قاتمة ، وكل مافيها من عيش حلو لابلبث أن ينقلب عيشا مرا ، بل إن كل مافيها هالك فان . وسَعِد من كُتبت له السعادة ، وشقِىَ من كتب له الشقاء . وينتقل إلى

(١) الغياض : جمع غيضة وهى الشجر الملتف المعروفة

(٢) عيدان هنا : جمع عود ، وهو الآلة الموسيقية

الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان النملة إذ تقول :

« إذا رماك الدهر بمرمى فقم له ، وإذا رأيت من تهيأ للسير فَسِرْ قبله ، ولاتكن فى تدبير عيشك أبله ، تعلَّمْ منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد .. كُلِّفت جمع المئونة بتيسير المعونة ، وأُعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ ، مالم يدركه ذو العلم الراسخ ، ثم أعطيت بالتقدير ، حسن التدبير ، فأدبِّر ما أدَّخره من الحب لقوتى ، فى بيوتى » .

والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفع للإنسان يسير فى الطريق السديد ، واعيًا لحكمة الله فى خلقه ، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال وأضواء تنير له دنياه ، وتعده إعدادا حسنا لأخراه . ولغة الكتاب سهلة بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد ، وهو حقا مسجوع ، ولكن ليس فيه ألفاظ آبدة غريبة ، وتتخلله أبيات شعرية سائغة ، تدل على حسن ذوق المؤلف ودقة اختياره . وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم كان يحسن الشعر والنثر جميعا .

٥

أعمال أدبية : رسائل وغير رسائل .

خَلَّفت الشام فى هذا العصر أعمالا أدبية كثيرة ، ويلقانا فى مفتتحه كشاجم ، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وماقيل فيه من الأشعار عرضا طريفا ، وله بجانبه كتاب فى البيرزة أو بعبارة أخرى فى جوارح الصيد ، وكتاب فى أدب النديم . ولأبى العلاء المعرى أعمال أدبية نثرية كثيرة ، لعل أهمها رسالة الغفران ، وسنلم بها عما قليل ، وفى خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هى رسالة النسر والبلبل ، وسنفرد لها كلمة موجزة ، وفى الخريدة أيضا رسالة [1] طريفة ليعمر بن عيسى المتوفى شابا سنة ثمان أو تسع وستين وخمسمائة ، وموضوعها معاشرة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غُصَّة فى دنيالا يدوم نعيمها ولاتندمل كلومها ، وعنده أن الفرصة هى الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص . ويفيض فى وصف الصيد ومايركبوا فيه من خيل وماحملوا فيه معهم من فهود وكلاب وبُزاة وشواهين ، ويطيل فى بيان صيد

---

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ١/٣٥٤-٣٨٩

له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة ، وهى رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق فى فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفى تصاويره وتلاوينه .

وربما كان أهم من عنى فى القرن السادس الهجرى بكتابة أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذى مرت ترجمته بين الشعراء ، وله كتاب العصا جمع فيه مانظم من شعر ، وهو منشور ، وله كتاب لباب الآداب ، وهو زاخر بالأشعار والحكم والنوادر والآداب الفردية والاجتماعية ، جعله فى سبعة كتب : فى الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب والبلاغة والحكمة ، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلا : فى الأدب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير . وعادة يورد فى كل كتاب مايتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار ومارورى عن العرب والعجم من أقوال . ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شَيْزَر موطنه وأحاله أنكاثا وأنقاضا ، ويقول فى مقدمته : « دعانى إلى جمع هذا الكتاب مانال بلادى وأوطانى من الخراب ، فإن الزمان جرَّ عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها[1] حَوْله وحَيْله[2] ، فأصبحتْ (كأن لم تَغْنَ بالأمس) موحشة العَرصات بعد الأنس ، قد دَثَر عمرانها ، وهلك سكانها ، فعادت مغانيها[3] رسوما ، والمسرات بها حسرات وهموما » وهو كتاب ضخم فى نحو ٥٠٠ صفحة ، اختار فيه أطرف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة ، وقد جعله فى ستة عشر فصلا : فى المنازل والديار والمغانى والأطلال والربع والدِّمن[4] والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان . وأطرف أعماله الأدبية جميعا كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى زمن المماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا ، وهو أشبه بمقالات أدبية فى الطبيعة والطير والحيوان والأخلاق وسنلمّ به عما قليل .

ونلتقى فى زمن المماليك بابن حجة الحموى وكتابه « ثمرات الأوراق » وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات ،.فيه نثر ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمقى والأطباء ، مع بعض الأحداث فى زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات .

---

(١) تعفيتها : دثورها وطمسها

(٢) الحيل : الحول والقوة

(٣) مغانيها : منازلها

(٤) الدمن : آثار الديار

وبأخرة من عصر المماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وسنفرد له كلمة .

ونتقدم إلى أيام العثمانيين ، ونلتقى ببهاء الدين العاملى الذى ترجمنا له بين شعراء الشيعة ، وله المخلاة ، وهى كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر ، وأهم منها كتابه الكشكول ، وهو فى مجلدين ، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية ، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف ، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة ، وحرى بنا أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية .

(ا) رسالة[1] الغفران

رسالة طويلة فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلى بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ، وهى تنقسم قسمين : قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصور له نزهة فى الجنة يلقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم : بِمَ غُفر لهم ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن القارح إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارًا لمصيره وقد ظل فى المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ ، وكان معه صك التوبة ففكر فى دخول الجنة عن طريق خداعه لسدنتها ونَظَم القصائد الطوال فى مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا ، وتركه إلى سادن آخر ، فنبهه إلى أن يتشفع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه . ولقى حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام على بن أبى طالب ، ورأى أبا على الفارسى يحاوره نفر من شعراء البادية فى تأويله لبعض كلامهم ، وطلب على بن أبى طالب منه شاهدًا على توبته فاستشهد بقاض من حلب ، وسقاه على من الحوض ، وقال له : لاسبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب ، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركاب إبراهيم بن الرسول ﷺ : ويسأله رضوان هل معك من جواز ؟ ويجذبه إبراهيم معه ، فيدخلها ويلتقى ثانية بالشعراء ويحاورهم . ويقيم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من فى الجنة من شعراء وعلماء وأدباء ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطلع فيرى طائفة من الجن ، ممن آمنوا بالرسول ﷺ ، ويسأل شيخهم عن

---

(١) انظر فى رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) و(طبعة د. بنت الشاطئ) وهى طبعة محققة (نشر دار المعارف)

أشعارهم التى جمع منها المرزبانى قطعة صالحة فيقول الشيخ : إنما ذلك هذيان لامعتمد عليه ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقى بالحطيئة والخنساء وهى تنظر إلى أخيها صخر فى الجحيم ، وينظر مثل الخنساء ، فيجد إبليس وبشارا وامرأ القيس وعنترة واثنى عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبى ويحاورهم جميعا . ويعود فيلتقى بآدم عليه السلام وببعض الحيَّات التى ظلمت فى الدنيا ، وكوفئت فى الآخرة بدخول الفردوس ونزولها فى روضة الحيات . ويمر بجنة الرُّجَّاز ، ويحاورهم فى أرجازهم حوارا طريفا . وتنتهى رحلة ابن القارح على الصراط وماشاهد من عذاب فى الجحيم ومن نعيم لايماثله نعيم فى الجنة ، ويفضى ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم .

وهذا هو القسم الأول فى الرسالة ، وقد كان له تأثير عميق فى الآداب العالمية ، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالى المتوفى سنة ١٣٢١ م على غراره الكوميديا الإلهية ، وشُغل بالبحث فى ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولايزالون مشغولين .

والقسم الثانى من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبى العلاء عن الزندقة والزنادقة ، وقد استهلها أبو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفائه فى زمن يعز فيه الوفاء : وتحدث عن حرفة الأدب وهمومها ، ودفع عن المتنبى مايقال من زندقته أو إلحاده إذ كان متألها كما تشهد بذلك أشعاره ، وشك فى عقيدة دعبل . وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفى مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد ، وتعرض لكثير من النحل المارقة فى زمنه ، وفى مقدمتها القرامطة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الاسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالحلول من الصوفية كالحلاج ، وأَصْلَى ابنَ الراوِنْدِىّ الزنديق[1] هو وكتبه : التاج والدامغ والقضيب والفريد والمرجان التى طعن فيها على الدين الحنيف نارًا حامية من الذم والتقريع ، ومن قوله فى التاج وهو أهم كتب ابن الراوندى الكافرة : لايصلح أن يكون نعلا ، وأُفٌّ وتُفٌّ ، وجورب وخُفّ وهما واديان بجهنم . ويعود إلى حديث ابن القارح ، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ فى مسجد بحلب ، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وببعض علماء حلب وبتلبيات العرب فى الجاهلية وببعض مسائل فرعية .

---

(١) راجع فى ابن الراوندى وإلحاده والرد عليه كتاب
من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ، لعبدالرحمن بدوى

والرسالة نفيسة إلى أبعد حد لالأن أبا العلاء صوَّر فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب ، بل أيضا لأنه ساق فى حواره مع الشعراء نقدا لغويا وعروضيا ونحويا ، مع تعرضه لقضية الانتحال على القدماء ، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وماذكر من قصائدهم . وقد عرض فى القسم الثانى للنحل الكثيرة فى زمنه ومافيها من خروج على الدين وإلحاد ومروق ، وقد أنحى بذم عنيف على كل المارقين الملحدين ، ومع ذلك يقال إنه حمَّل الرسالة سخرية من الدين الحنيف ، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة .

ولم نعرض لأسلوبه فيها ، وهو نفس أسلوبه العام الذى ألفناه ، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة فى الغرابة ، تعبيرا عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربية ، علما لعل أحدا من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به ، وهو لايكتفى بالإغراب فى ألفاظ سجعه ، بل يضيف إليها كما قلنا فى غير هذا الموضع وشيا من المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠ – ٤٢٩ هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهده فى العقد الثالث من القرن الرابع .

(ب) رسالة[١] النَّسر والبلبل

هى رسالة بديعة للمهذب أبى طالب محمد بن حسان الدمشقى ، ترجم له العماد الأصبهانى فى خريدته . وقال إنه زاره فى مدرسته العمادية التى كان يدرس بها لطلابه فى ربيع الأول سنة ٥٧١ وأنشد بعض أشعاره ، ثم قال : ونقلت له من رسالة وسمها « بالنَّسْر والبلبل » فاختصرتها وأولها .. » ثم ذكر – فيما يبدو فاتحتها ، وهى تصور نسرا شاهد روضا فاتنا خلب لبه ، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملأه غبطةوفتنة ، فسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا مع أنى ملك الطيور ليس لى شىء من سحره وجماله؟ وأجابه إن الصانع الحكيم لايهب الأصوات حسب الأجسام . والرسالة تبدأ بوصف النسر على هذا النمط :

طار طائر عن بعض الشجر ، وقد هبَّ نسيم السحر ، وانفلق عمود الفَلَق[٢] وانخرق قميص الغَسَق[٣] مشهور بالقَسْر[٤] ، موسوم بالنَّسر ، والليل قد شابت ذُؤَابته[٥] ، وابيضَّت قته . .

(١) انظر الرسالة فى الخريدة (قسم الشام) ١/٣٤٠ وانظر معها ترجمة صاحبها محمد بن حسان وانظره فى كتاب المحمدون من الشعراء والوافى بالوفيات ٢/٣٣٠

(٢) الفلق : الصبح

(٣) الغسق : الليل .

(٤) القسر : القهر

(٥) الذؤابة : شعر مقدم الرأس ، والاستعارة واضحة

كأنما أجنحته رُكِّبت من العواصف ، واستُلبت من البروق الخواطف . . كأنه سهم رُشِق [١] عن قوس القضاء ، أو نجم أشرق فى أفق السماء .. يقبض أجنحته ويبسط ، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قوادمه [٢] أعطاف القَبول [٣] وأطراف الصَّبا ، وَيُقدُّ الشمال بخوالفَ [٤] كأنها غروب [٥] الظُّبا ، ويفتق بخوافيه [٦] جُيوبَ الجنوب [٧] ، ويخرق بصدره صدر الرياح فى الهبوب .. حتى أشرف .. على روض أريض [٨] . وظلٌّ عريض ، وأنهارٍ متدفِّقة ، وأشجار مونقة ، وطلٌّ منثور ، ووَرْد ومنثور [٩] ، ومكان بَهج ، وزهر أَرِج .. فمن وردٍ فضىٍّ الأوراق ، ذهبى الأحداق ، كافورى الصِّبغة ، مسْكى الصِّيغة ، مائىّ الجسم ، هوائى الرسم ، حاكت [١٠] الصَّبا إهابه ، وخاطت الشمال أثوابه ، وفتَّحت الجَنوب أكمامه ، وحسرت [١١] الدَّبور عن وجه جماله لثامه ، فظهر فى أفق الشجر ، كأنه شهب السَّحَر ، أو خدود الحُور فى القصور ، ظهرت فى غلائل من الكافور ، ومن غصون تجتمع وتفترق ، وتترنَّح وتعتنق ، والنسائم تحلُّ عَقْد أزرار الزَّهَر... والشمس تُسفر وتنتقب ، وحاجب الغزالة [١٢] يبدو ويحتجب .. فوقف [النسر] فى الهواء حين رآها وقال : هذه غاية النفس ومناها . . أين المذهب ، وقد حصل المطلب ، وأين الرواح وقد أسفر الصباح .. وبينا هو صافٌّ الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجّب إليها ، إذ سمع صوتا من بلبل سحرىٍّ على وَكْر شجرىٍّ ، يناغى النسائم بنغمة مزماره ، ورنَّة أوتاره .. وألحان أعذب من نقرات المزاهر ، ينثر درًّا من عقود ألحانه ولؤلؤا من صَدَف افتنانه بين أفنانه [١٣] ، ويرجِّع قراءة مكتوب غرامه ، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه .. كأنها ماقيل عن مزامير آل داود وتسابيحهم فى الركوع والسجود .. أو أصوات رهبان الصوامع ، أو تلاوة من تَتجافى [١٤] جُنوبهم عن المضاجع . . ثم هوى إلى القرار ، لينظر من النافخ فى المزمار ، فرأى البلبل يرجِّع سجع ألحانه فى ربع أحزانه » .

---

(١) رشق : رمى

(٢) القوادم : الريش الطويل فى مقدم الجناح

(٣) القبول : ريح الصبا الشرقية

(٤) خوالف : جمع خالفة هى الريش فى مؤخر النسر

(٥) غروب : جمع غرب وهو طرف الحد – والظبا : جمع ظبة وهى الحد للرمح ونحوه

(٦) الخوافى : الريش القصير فى الجناح

(٧) الجنوب : ريح جنوبية

(٨) أريض : كثير النباتات حسن المنظر

(٩) المنثور : زهر له رائحة ذكية

(١٠) حاكت : نسجت

(١١) حسَرت : كشفت . والدبور ريح تهب من الغرب

(١٢) الغزالة : الشمس .

(١٣) أفنانه : أغصانه .

(١٤) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة .

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة ، واكتفى بمطالعها أو فواتحها ، فإننا زدناها اختصارا ، وأكبر الظن ، أنه قد اتضح جمال الأسلوب فى هذه الرسالة البديعة ، فسجعها يطير عن الأفواه بخفته لرشاقة ألفاظه وبدع تصاويره. ويَفْتِن النسرَ صوتُ البلبل وجمال تلاحينه، فيتجه إليه مسلما عليه ، ويظهر العجب لأنه صغير حقير فى منظره ، وله هذا اللحن المطرب ، والصوت المعجب ، ويصارحه بما فى نفسه ، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته ، فيقول له : « أما علمت أن الأرواح لطائف وهى أشرف من الأجسام ، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام ، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان ، والإنسان عظيم والمعتبر منه الأصغران : القلب واللسان ، مايكون الدر بقدر الصدف ، وشتان مابينهما فى القيمة والشرف ، ولا الآدمى كالفيل ، وبينهما بَوْنٌ فى التفصيل .. وأما النغمة التى قرع سمعَكِ سوط لذَّتها .. فإننى رصَّعت شَذْرها[1] فى عقد ألحانى على نغم بعض الأغانى » .

ويذكر البلبل للنسر أنه كوَّن ألحانه من احتفال يعقد فى الروضة كل ليلة للملك يأتيها مع ندمائه ، إذا ولَّى النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشْعَلُ له الشموع وتصطفّ القيان وصفوف الحور والولدان وترجِّع الأنغام والألحان ، وينقضى ليلهم فى لهو وسماع وطرب ، ومنهم أخذ ألحانه وأنغامه . وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحذو حذوه فى الاستماع إلى رنات الغناء فى هذا الحفل العجيب . ويدعو النسر إلى المبيت فى الروض غير أنه ينام ، ويضيع منه مراده ، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا : إن من استلذ المقام ، عدم المرام ، ووُجِّه إليه الملام . وأكثر البلبل على النسر العتاب ، فودَّعه وطار ، وقد عدم الأوطار . ويطيل المهذب فى العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد ، وبصدق الطلب يُدْرك الأرب . ويقول العماد إن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظى ليس من شرط كتابه ذكره ، وواضح أن وعظها دار حول الجد فى طلب المنى دون مهلة أومايشبه المهلة فضلا عن الغفلة ومايشبه الغفلة .

(جـ) كتاب الاعتبار[2]

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا فى الحروب الصليبية ، وقد مرت ترجمته بين الشعراء ، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة ، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى فى

---

(١) الشذر : قطع الذهب وصغار اللؤلؤ

(٢) نشر فيليب حتى هذا الكتاب فى برستون سنة ١٩٣١ وراجع ماكتبناه عنه فى كتابينا : الترجمة الشخصية والرحلات (طبع دار المعارف)

obeikandi.com

شَيْزر حصن آبائه وماوقع له فيها من أحداث ، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتنقل – كما مر فى ترجمته – بين دمشق والقاهرة والموصل .. ووصف ماشاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحَملة الصليب ، وشارك – كما مر بنا – فى أحداث مصر قبيل نهاية الدولة الفاطمية ، وروى ماكان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء . ووصف وصفا حيا حربه تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين ، كما وصف وصفاحيا معيشة حَملة الصليب بديار الشام إذ كانت تتصل بينهم وبين المسلمين – حين تضع الحرب أوزارها – علاقات من حسن الجوار ، مما جعله ينزل بينهم فى بعض الأوقات . وقد وصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير » ويصورهم متأخرين حضاريا عن المسلمين . ويذكر فى صراحة أن المودة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم ، ويقول إنه لاتوجد عندهم غيرة على نسائهم ، ويصورهم متخلفين فى الطب تخلفا شديدا ، ويقص هذه النادرة :

« من عجيب طبِّهم أن صاحب المنيطرة (فى أعالى الشام) كتب إلى عمى أمير شَيْزر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليهم طبيبا نصرانيا يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ماأسرع ماداويت المرضى ! قال : أحضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دُمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم : هذا مايعرف شىء (فكيف) يداويهما؟ . وقال للفارس : أيما أحب إليك؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال : أعيش برجل واحدة ، فقال : أحضروا إلى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة (قطعة) خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مأكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال ، الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى ، وشقَّ رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكَّه بالملح ، فقلت لهم : أبقى لكم إلىَّ حاجة ؟ قالوا : لا فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أعرفه » .

وثابت الطبيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم . ويتحدث أسامة طويلا عن

عاداتهم ومأأخذوه من العادات الإسلامية الشرقية فى المطعم والملبس ، مما يؤكد أنهم إذا كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها .

وليس فى هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولاأى نسق تأليفى ، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض ، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب وذكرى من الشيخوخة ، أو قل إنها ذكريات مبعثرة ، غير أنها كتبت بأسلوب قصصى ممتع لاتصنع فيه ولاتكلف ، فلا سجع يداخله ولامحسن من محسنات البديع ، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ماشاهد وصفا نابضًا بالحياة فى لغة سهلة ، حتى لتقترب أحيانا من العامية . وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا ، ففيها بعض الخطأ فى الإعراب وفى نسق الأسلوب ، غير أن ذلك لايتصل فى الذكريات اتصالا من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبى الفصيح ، وجعل هذا المنحَى أسامة يستخدم أحيانا كلمات إفرنجية وأخرى فارسية أو تركية ، وكأنما يريد أداء الواقع بكل مايتصل به من لغة الناس لزمنه . وفى الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب ، سجَّلها مشاهد لها رآها تحت بصره .

(د) نسيم[1] الصَّبا

مؤلف هذا الكتاب الذى يُعَدّ طرفة أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقى المعروف باسم ابن حبيب أحد أجداده ، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عُيِّن محتسبًا بحلب ، فنشأ بها بدر الدين ، ورحل فى طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن ابن نباتة ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام فى الاسكندرية مدة ، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة . وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق فى عهد الأمير سيف الدين منجك ، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفى سنة ٧٧٩ . وله تاريخ فى سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك فى دولة الأتراك وهو مسجوع ، وله تذكرة النبيه فى أيام المنصور (قلاوون) وبنيه ، وله فى السيرة النبوية كتابان : النجم الثاقب فى أشرف المناقب ، والمقتفى فى ذكر فضائل المصطفى .

---

(١) انظر فى نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١١ والشذرات ٢٦٧/٦ وتقاريظ الصفدى لنسيم الصبا بين يدى طبعته سنة ١٢٩٠ هـ .

وأهم أعمال ابن حبيب الأدبية « نسيم الصَّبا » وهو ثلاثون فصلا أو مقالة بتعبيرنا الحديث ، اتخذ موضوعها الطبيعة أحيانا ، إذ له فيها ثمانية فصول فى وصف السماء ، والشمس والقمر ، والمطر ، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر ، والأشجار والثمار والروض والأزهار ، وأحيانا اتخذ موضوعها الحيوان والطير ، إذ له فيه أربعة فصول فى الخيل والإبل والوحش ، والطيور ، ورمى البندق أو الصيد . وأحيانا أخرى اتخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان . وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية ، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء ، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة ، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للاعداء ، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يضنيه من العشق ، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه ، يذكر فيه محاسنه ومساويه . وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات ، على نحو مايلقانا عن فصول السنة فى الفصل الخامس . ونشعر دائما بالقدرة على التعبير المسجوع والتصوير الرائع كقوله فى الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عُبابه :

« هزَّتْنى رياح الأمل البسيط ، إلى امتطاء ثَبَج[1] البحر المحيط ، فأتيت سفينة يطيب للسَّفْر مَثْواها ، وركبتُ فيها (بِسْمِ الله مَجْراها ومُرْساها) .. يالها سفينةً ، على الأموال أمينة ، ذات دُسُرٍ[2] وألواح ، تجرى مع الرياح ، وتطير بغير جَناح ، وتعتاض عن الحادى[3] بالملاَّح ، تخوض وتلعب ، وتَرِد[4] ولاتشرب ، لها قِلاع كالقلاع[5] ، وشراع يحجب الشُّعاع ، وسكينةٌ وسُكَّان[6] ومكانةٌ وإمكان ، وجُؤْجُؤٌ وفَقارٍ[7] ، وأضلاع محكمة بالقار[8] .. بعيدة مابين السَّحْر والنَّحْر[9] ، من أحسن الجوارى[10] المنشآت فى البحر ، معقودٌ بِنواصيها[11] الخير كالخَيْل ، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل :

---

(١) ثبج : وسط .

(٢) دسر : حبال :

(٣) الحادى : سائق الإبل بالحداء وهو الغناء للإبل

(٤) ترد : من ورود الماء وبلوغه

(٥) قلاع الأولى : شراع السفينة جمع قلع . وقلاع الثانية : جمع قلعة وهى الحصن

(٦) سكينة : وقار . وسكان السفينة : دقتها

(٧) الجؤجؤ : صدر السفينة . الفقار : جمع فقارة وهى الواحدة من عظام سلسلة الظهر

(٨) القار : القطران

(٩) السحر : الرئة ، النحر . أعلى الصدر

(١٠) الجوارى : السفن

(١١) نواصيها : مقدماتها . وفى الخيل : الشعر فى مقدمة الرأس

ما رأى الناسُ من قصورٍ على المـا ء سواها تَسيرُ سَيْرَ القِداحِ [١]

كأنها وَعِلٌ [٢] ينحطُّ من شاهق ، أو عِرْباضٌ [٣] سابق يحثُّه سائق ، أو عقرب شائله [٤] ، أو عُقاب صائلة [٥] .. حاكمها [٦] عادل فى حكه ، عارف بِنقض أمرها وبَرْمه [٧] ، يهتدى بالنجوم ، ويبتدئ باسم الحى القيُّوم .. وبينما نحن من البحر فى قاموسه [٨] ، كتب الجوُّ حروف الغيم فى طروسه ، وثارت ريح عاصف ، يتبعها رعد قاصف ، فمالت بنا الفلْك [٩] واضطربت ، ودنت شفتها من رَشْف الماء واقتربت ، واستمرت تعلو على الأوتاد [١٠] ، وتهيم فى كل واد . وتضرم فى الكبود نار ناجِر [١١] ، إلى أن (بلغت القلوب الحناجر [١٢]) .. ثم نظر إلينا من لاَ تخفى عليه السرائر ، وأمر الجارية [١٣] بِحْمل عبيده إلى بعض الجزائر » .

ونزلوا الجزيرة وتنزهوا فى رياضها ورأوا فيها نهرا أرضه ذهب وحصباؤه درر . ويمضى ابن حبيب فى الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذى يمتع الآذان والأذهان بجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حين تنطق به ، ويسر القلوب حين تستمع إليه . وبحق يقول ناصر الدين بن البارزى فى الكتاب مقرظًا له : « لقد أشبه الدر فى انتظامه ، والثغر فى ابتسامه ، وقَطْرَ الندى فى انسجامه ، وزهر الروض فى البُكَر إذا غنتْ على غصونه مطرباتُ حمامه .. فهو فى اللطافة كالماء فى إروائه ، وكالهواء المعتدل فى ملاءمة الأرواح بجوهر صفائه ، وكالسلك إذا انتُقى جوهره وأُجيد فى انتقائه » . وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين فى الحكم والمواعظ ، ودائما يوشِّى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره .

---

(١) القداح : السهام

(٢) الوعل : ماعز الجبل الوحشى

(٣) العرباض : البعير الضخم

(٤) شائلة : رافعة ذنبها

(٥) صائلة : واثبة جائلة

(٦) حاكمها : ربانها

(٧) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة

(٨) القاموس : البحر ويريد هنا لجة العظيم

(٩) الفلك : السفينة

(١٠) الأوتاد : الجبال

(١١) ناجر : أشد أشهر الصيف حرارة

(١٢) أى نبت عن أماكنها فى الصدور فبلغت الحلاقم ، والآية كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع

(١٣) الجارية : السفينة

(هـ) فاكهة[1] الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عربشاه أحمد بن محمد الدمشقى الحنفى ، ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيا ، حتى كانت طامَّة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالهم النيران فيها ، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول ، ومنها رحلتْ إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور ، واستوطنها ابن عربشاه مدة . وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيوخ إليه ، فطاف بكثير منْ البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها ، واستقر فى الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثمانى محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاث التى كان يحسنها : العربية والفارسية والتركية ، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذى أتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة ، ويقال إن عدد حكاياته كان يزيد على ألفى حكاية . وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثمانى إلى الشام وأقام بحلب ، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف . وهاجر إلى القاهرة فى عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا فى الفصل الثانى أنه كتب له سيرة ، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة . ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمور سماها عجائب المقدور فى نوائب تيمور ، وهى مسجوعة ، وطبعت مرارا . وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة -كما أسلفنا - فى العربية والفارسية والتركية ، وصنف فى الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوفى سماه « مرزبان نامه » طُبع قديما ، وعنه نقل كتابه « فاكهة الخلفاء » نثرا مسجوعا . وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة .

وكتابه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » يشتمل على حكايات كثيرة ، وهى موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبى المحاسن حسان يرويها عن الحكيم « حبيب » ، وهو الابن الصغير للملك ، ترك خمسة إخوة تملك أحدهم وأطاعه إخوته ، ثم دب الحسد فى نفوسهم ، فرأى أخوهم الصغير « حبيب » اعتزالهم ، فاستأذن أخاه الملك فى العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة ، فاستصوب رأيه غير أن وزيرا له شككه فى مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة ، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أوكذبه . فجمع الملك

---

(١) طبع هذا الكتاب فى مصر مرارا وانظر فى ابن عربشاه النجوم الزاهرة ١٥/٥٤٩ والضوء اللامع للسخاوى ٢/١٢٦ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب ٧/٢٨٠ والبدر الطالع ١/١٠٩ ومقدمة كتابه : « فاكهة الخلفاء »

أعيان الدولة وعلماءها وفضلاءها وأخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه فى أسلوب قصصى مسجوع بديع ، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة . والباب الأول فى ذكر ملك العرب ، ومعه أربع قصص : قصة الضحاك الملك الفارسى الأسطورى القديم ، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التى حكمت طبرستان وجرجان فى القرن الرابع الهجرى وقتل أعوانه له ، وقصة بهرام جور الملك الساسانى الذى كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التى رآها وسرعان ماصادته – كما يقول ابن عرب شاه – بلحظها المكسور فأمسى قلبه وهو فى يدها مأسور وما كان من اقترانه بها ، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذئب فقدم الحمار مأدبة للكلاب . والباب الثانى فى وصايا ملك العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ماجرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل . والباب الثالث فى قصة خاقان الأتراك مع ختنه أو صهره الزاهد شيخ النساك . والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت . وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحكام وماينبغى أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان مايأمل ، ويأمن مايحذر .

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطير على طريقة كليلة ودمنة ، وقد أشار إلى ذلك المؤلف فى مقدمة كتابه قائلا إن الحكمة إذا قيلت على ألسنة الوحوش وماهو غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت فى مطالعتها الطباع ، لأن المألوف منها اقتراف الشرور والافتراس ونقص المعرفة والفطنة فإذا أسندت إليها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، وتلقتها الصدور بالانشراح ، ونفوس الناس بالارتياح . وتتخلل هذه الأبواب جميعا قصص بديعة ، وكثير منها فارسى الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه فى الماء والتقام بطة له وحزنه عليه ورجوعه إليه . وذكر فى الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذى رآه يغرس فى بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه فى زرع غرسه ونصَبه . وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذى طمَّ العالم بالفساد ، وأهلك العباد والبلاد .

والكتاب زاخر بدقائق الحكمة والفطنة التى تهذب النفوس والتى تعود على الناس بالتهذيب فى معاملتهم والعدل فى حُكمهم والكسب فى معاشهم والعمل الصالح لمعادهم . ويلحُّ الكتاب على

أن المال الذى فى خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغى أن يُنْفَق فى مصالحها وحوائجها ، وهو فى يد الحاكم أمانة ، وصرفه فى غير وجهه خيانة . ويرسم الكتاب دائما لقارئه الأخلاق الحميدة والشمائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه مع رفق ولين للمساكين ، ومع صلابة فى الدين . وفى كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد فى الحياة ، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية . والكتاب مسجوع ، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب . وقصصه رائعة ، وحرى أن تعرض على الناشئة مع إخلائها مما جاء فى بعضها من ألفاظ مفحشة أونابية . ولانشك فى أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأقاصيص خير ماقرأه فى الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعِلْيَةِ الناس وصعاليكهم . ولابد أنه أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله ، وقد رأى أن يحاكى كليلة ودمنة بقصص كثيرة ، كما أسلفنا . والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ماقرأه فى كتاب سلوان المطاع فى عدوان الأتباع الذى ألممنا به فى حديثنا عن الجزيرة العربية ، وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمته للكتاب ، وحِكَمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر .

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلِّم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة ومافيها من فضائل تكتسب ، ورذائل تجتنب ، وما أروع الحكمه التى أجراها على لسان بعض الملوك فى قوله لأبنائه ناصحا : « يابنىَّ اكتسبوا العلم والفضل وادَّخروا الحلم والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جمالا » .

خـاتـمة

تحدَّثنا فى هذا الجزء عن الشام وتاريخها الأدبى فى عصر الدول والإمارات وبدأنا حديثنا عنها بالكلام عن فتح العرب لها مع إلمامة موجزة بتاريخها القديم وبيان حياتها السياسية زمن الدولة الأموية وأيام الولاة العباسيين ، وفى عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية وأيام الحمدانيين ومن تداولها أو تداول أجزاء منها زمن الدولة الفاطمية ، وقد ظلت معها فلسطين ، وظلت دمشق أيضا معها حقبة من الزمن . واستولى بنو مرداس على حلب واستولى السلاجقة منهم عليها كما استولوا على دمشق . ونزل الصليبيون الشام وأسسوا بها ممالكهم واستخلص منهم عماد الدين زنكى الرُّها وخلفه ابنه نور الدين على حلب وأنزل بالصليبيين ضربات قاصمة وضم إليه دمشق . ولم تلبث الشام جميعها أن انضوت بعده تحت لواء صلاح الدين ، وحطم حَملة الصليب فى حطين وغير حطين واستنقذ منهم بيت المقدس وأكثر بلدان الشام . وظل يدفعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه خلفاؤه الأيوبيون ثم المماليك وسَحْقهُم للمغول فى عَين جالوت مشهور. وكانت مصر والشام فى أيام المماليك دولة واحدة إلى أن نزلتها جحافل العثمانيين وأصبحت ولاية عثمانية . وقد عرضنا المجتمع فى الشام وحياته الاقتصادية والاجتماعية وما كان ينعم به من الرخاء إلى أن حكمه العثمانيون حكما ظالما غاشما فانتكست فيه الزراعة والصناعة والتجارة . ومن قديم أخذت تتكاثر فى الشام فرق الشيعة من نصيرية ودروز وإمامية وإسماعيلية نزارية وهى المسماة بالفداوية وبالحشاشين. وقد مضت الشام تُعْنَى بالزهد والتصوف وكثرت فيها - مثل مصر - الزوايا والخانقاهات والطرق الصوفية والدراويش.

وكان بالشام قبل الإسلام تراث يونانى علمى وفلسفى ، وقد نفذت بمجرد دخولها فى الإسلام إلى حركة علمية خصبة ، وتكاثر فى بلدانها المدارس منذ أيام السلاجقة كثرة مفرطة ، وكان طبيعيا أن تشارك فى حركة الترجمة للتراث اليونانى وفى العناية بعلوم الأوائل من رياضيات وطبيعيات وطب وجغرافيا بالإضافة إلى ماعُنيت به من علوم اللغة والنحو والبلاغة النقد . ومنذ القرن الرابع الهجرى يتألق اسم كثيرين من نحاتها أمثال الزجاجى وابن خالويه وابن يعيش ونزيلها ابن مالك الأندلسى ، ولعل لغويا عربيا لم يبلغ من الشهرة مابلغه أبو العلاء المعرى ، ونلتقى بحلقة نقدية بحلب زمن سيف الدولة ، وتوالى فيها النقاد من أبى العلاء إلى يوسف البديعى أيام العثمانيين ،

وتنشط بها الدارسات البلاغية منذ ابن سنان الخفاجى إلى عبدالغنى النابلسى فى بديعيتيه المشهورتين . وتُعنى الشام بالقراءات ويشتهر بها فى القرن الثانى الهجرى أحد القراء السبعة ، ويتصل فيها هذا النشاط من أيامه إلى أيام ابن الجزرى فى القرن التاسع الهجرى . وينشط بها التفسير وتؤلف فيه كتب نفيسة ، كما تنشط دراسة الحديث النبوى ويتكاثر حفاظه النابهون ، وبالمثل تنشط دراسة المذاهب الفقهية الكبرى ، ويشتهر فيها غير إمام مثل النووى الشافعى وابن تيمية الحنبلى ، وتكون الغلبة بين الكلاميين للمذهب الأشعرى . وتنشط الكتابة التاريخية بجميع صورها من سيرة مفردة إلى تاريخ الدول أو دولة معينة وتاريخ المدن وخاصة دمشق وحلب والتراجم أو كتب الرجال والطبقات فى مختلف العلوم والمذاهب والأدب والأدباء .

وكانت الشام قد أخذت فى التعرب قبل الإسلام لا على الحدود بينها وبين الجزيرة العربية حيث كان يقيم النبط والغساسنة بعدهم فحسب ، بل أيضا فى داخل البلاد الشامية ، وفيها وعلى الحدود كان العرب يحيون حياة الروم البيزنطيين ، وكانوا يدينون بدينهم المسيحى . وكان ذلك سببا قويا فى أن يتم تعرب الشام سريعا بعد الفتح الإسلامى ، وأن تصبح العربية لسان سكانها جميعا مسلمين ومسيحيين . ولم يكن للشام نشاط يذكر قبل الإسلام فى الشعر ، حتى إذا هاجرت إليها القبائل القيسية النجدية المشتهرة بالشعر أخذ يكثر على ألسنة أهلها ، وطوال عصر بنى أمية كان يفد عليها شعراء الحجاز ونجد والعراق وشارك غير خليفة فى نظم الشعر مثل يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويظل للشام نشاطها فى الشعر طوال عصر الولاة والدولتين الطولونية والإخشيدية إذ يلقانا للشام غير شاعر نابه مثل أبى تمام والبحترى . وينشط الشعر فى القرن الرابع وخاصة فى حلب وبلاط سيف الدولة ، على نحو مايصور ذلك الثعالبى فى اليتيمة .

ويظل نشاط الشعر مطردا ويخص العماد الأصبهانى شعراء الشام فى القرن السادس بثلاثة أجزاء من كتابه الخريدة . وتزخر كتب التاريخ والتراجم بشعراء الشام فى القرن السابع الهجرى ومابعده . ويكثر الشعر الدورى والرباعيات كما تكثر الموشحات ويشتهر بالنظم فيها أَيْدُمر المحيوى والمحَّار الحلبى ، وبالمثل البديعيات والتعقيدات ، ويروج سوق المديح رواجا كبيرا على نحو ما نجد عند ابن الخياط وابن القيسرانى وابن الساعاتى والشهاب محمود ومنجك . وتدبَّج صفحات زاهية لشعراء الحكمة والفلسفة من مثل أبى العلاء المعرى ومنصور بن مسلم وابن الجزرى . ويكثر شعراء التشيع من مثل كشاجم وابن حيَّوس وبهاء الدين العاملى .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول طائفة تلقانا منهم شعراء الغزل وما يثير فى النفوس من

العواطف والخواطر والمشاعر على نحو مانقرأ عند عبدالمحسن الصورى وابن منير والشاب الظريف وحسن البوريني . وكان شعراء كثيرون يحاولون أن يملئوا الدنيا ضجيجا بمفاخرهم وبسالتهم فى سحق الأعداء وبفضائلهم أو بهجائهم ومايرسمون لبعض الشخصيات من صور ذميمة ، على نحو مانقرأ عند أبي فراس الحمدانى وأسامة بن منقذ وابن النحاس من جهة وعند عرقلة وابن عنين من جهة ثانية . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والشكوى مثل ابن سنان الخفاجى والغزى وفتيان الشاغورى ومصطفى البابى . وكثيرون من الشعراء كانوا يتغنون بجمال الطبيعة ويشغفون بمجالس اللهو فى المتنزهات والأديرة على نحو مانقرأ عند الوأواء الدمشقى وابن قُسَيْم الحموىّ ومجير الدين بن تميم وابن النقيب . وشعراء كثيرون كانوا يتغنون بمشاعر الشعب الدينية ومايتصل بها من الزهد والتصوف والمدائح النبوية مثل عبدالعزيز الأنصارى ومحمد بن سوَّار وعفيف الدين التلمسانى وعبدالغنى النابلسى . وبجانب ذلك كان هناك شعراء شعبيون قصروا شعرهم على الأزجال ولغتها اليومية مثل أبى العلاء بن مقاتل .

وتُعْنَى الشام بالرسائل الديوانية وخاصة فى عهد الدولتين : الأيوبية والمملوكية على نحو مانجد عند العماد الأصبهانى الناثر الشاعر والصفدىّ وابن حجة الحموى وكانا أيضا ناثرين شاعرين ، وتكثر الرسائل الشخصية ، واشتهر أبو العلاء بكثرة ماأملى من رسائله . وتلقانا بعده رسائل شخصية كثيرة كان يكتبها الأدباء للشكر وللتهنئة أو للعتاب أو للاستعطاف أو للعزاء وكثيرا ماكانوا يتراسلون ، من ذلك مراسلات الطغرائى والغَزِّى ، ودائما تلقانا هذه الرسائل الشخصية حتى نهاية العصر وربما قصدوا بها إلى المهارة الأدبية أو إلى الهزل . وتكثر المقامات . ولاتعتمد على أديب متسول كما كانت عند الحريرى ، إذ تُعْنَى بالوصف أو بالوعظ أو المفاخرة بين بعض الأزهار ، وكأنما أصبحت تخوض فى موضوعات متنوعة على نحو ما نجد عند ابن الوردى . وتكثر المواعظ وفى مقدمتها خطب ابن نباته وكتاب الفصول والغايات لأبى العلاء وخطبة القدس بعد فتحه لمحيي الدين بن الزكى وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى . وتتكاثر فى العصر الأعمال الأدبية من رسائل وغير رسائل مثل رسالة الغفران ورسالة النسر والبلبل وكتاب الاعتبار وكتاب نسيم الصَّبا وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

الفهـــرس

صفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول: السياسة والمجتمع ..... ٩ - ٥٩

١ - فتح العرب للشام والحقب الأولى ٩

(أ) فتح العرب للشام

(ب) زمن الدولة الأموية

(جـ) زمن الولاة العباسيين

(د) الطولونيون - القرامطة

(هـ) الإخشيديون - الحمدانيون (سيف الدولة)

٢ - الفاطميون - بنو مرداس - السلاجقة - الصليبيون - آل زنكى (نور الدين) ٢٣

٣ - الأيوبيون (صلاح الدين) - المماليك - العثمانيون ٢٩

٤ - المجتمع ٣٧

٥ - التشيع: الإسماعيلية والإمامية - النصيرية - الدروز - الإسماعيلية النزارية أو الفداوية أو الحشاشين ٤٥

٦ - الزهد والتصوف ٥٢

الفصل الثانى: الثقافة ..... ٦٠ - ١١٩

١ - الحركة العلمية ٦٠

٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا ٧٠

(أ) علوم الأوائل

(ب) علم الجغرافيا

٣ - علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة ٨١

٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ٩٣

٥ - التاريخ ١١١

الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء ..... ١٢٠ - ١٩٨

١ - تعرب الشام ١٢٠

٢ - كثرة الشعراء ١٢٤

٣ - شعر دورى - رباعيات - موشحات - بديعيات - تعقيدات ١٢٨

obeikandl.com

صفحة

(أ) الشعر الدورى
(ب) الرباعيات
(جـ) الموشحات: أيدمر المحيوى. المحّار الحلبى
(د) البديعيات
(هـ) التعقيدات
٤ - شعراء المديح ١٤١
ابن الخياط - ابن القيسرانى - ابن الساعاتى - الشهاب محمود - منجك
٥ - شعراء الفلسفة والحكمة ١٦٣
أبو العلاء المعرى - منصور بن المسلم - حسين الجزرى
٦ - شعراء التشيع ١٨٣
كشاجم - ابن حيوس - بهاء الدين العاملى
الفصل الرابع: طوائف من الشعراء ١٩٩-٢٩٤
١ - شعراء الغزل ١٩٩
عبدالمحسن الصورى - ابن منير - الشاب الظريف - حسن البوريني
٢ - شعراء الفخر والهجاء ٢١٦
أبو فراس الحمدانى - عرقلة - أسامة بن منقذ - ابن عنين - ابن النحاس
٣ - شعراء المراثى والشكوى ٢٤٠
ابن سنان الخفاجى - الغزى - فتيان الشاغورى - مصطفى البابى
٤ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو ٢٥٧
الوأواء الدمشقى - ابن قسيم الحموى - مجير الدين بن تميم - ابن النقيب
٥ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٢٧٢
عبدالعزيز الأنصارى - محمد بن سوار - عفيف الدين التلمسانى - عبدالغنى النابلسى
٦ - شعراء شعبيون: أبو العلاء بن مقاتل ٢٩٠
الفصل الخامس: النثر وكتّابه ٢٩٥-٣٤٧
١ - الرسائل الديوانية ٢٩٥
العماد الأصبهانى - الصفدى - ابن حِجَّة الحموى
٢ - الرسائل الشخصية ٣١٠
(أ) رسائل أبى العلاء
(ب) رسائل متنوعة
٣ - المقامات: ابن الوردى ٣١٨

صفحة

٤ – المواعظ والابتهالات ٣٢٥
(أ) خطب ابن نباتة الفارقي
(ب) الفصول والغايات
(جـ) خطبة القدس بعد فتحه لمحيى الدين بن الزكى
(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار
٥ – أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل ٣٣٤
(أ) رسالة الغفران
(ب) رسالة النسر والبلبل
(جـ) كتاب الاعتبار
(د) نسيم الصبا
(هـ) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء
خاتمة ٣٤٧–٣٥٠

obeikandl.com

obeikandl.com

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

في الدراسات القرآنية

- الوجيز فى تفسير القرآن الكريم
  ١٠٥٢ صفحة
- سورة الرحمن وسور قصار
  «عرض ودراسة»
  ٤٠٤ صفحات
- عالمية الإسلام
  ١١٩ صفحة
- محمد خاتم المرسلين
  ٤٧٦ صفحة
- الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة
  ٣٣١ صفحة

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
  ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
  ٤٦١ صفحة
- العصر العباسى الأول
  ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسى الثانى
  ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  (الجزيرة العربية - العراق - إيران)
  ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات (الشام)
  ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات (مصر)
  ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات (الأندلس)
  ٥٥٢ صفحة
- عصر الدول والإمارات
  (ليبيا - تونس - صقلية)
  ٤٤٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات (الجزائر)
  (المغرب الأقصى- موريتانيا - السودان)
  ٧٠٦ صفحات

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
  ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
  ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
  ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
  ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
  ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
  ٣٠٨ صفحات
- البارودى رائد الشعر الحديث
  ٣٠٨ صفحات
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية
  ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبى
  (طبيعته - مناهجه - أصوله -مصادره)
  ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
  ٢٥٦ صفحة
- فى التراث والشعر واللغة
  ٢٧٦ صفحة
- فى الشعر والفكاهة فى مصر
  ١٢٨ صفحة

obeikandl.com

- من المشرق والمغرب
(بحوث فى الأدب)
٢٧٢ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
٢٥٠ صفحة
- فصول فى الشعر ونقده
٣٦٨ صفحة
- فى الأدب والنقد
١٥٢ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة: تطور وتاريخ
٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
٣٧٦ صفحة
- تجديد النحو
٢٨٢ صفحة
- تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا
مع نهج تجديده
٢٠٨ صفحات
- تيسيرات لغوية
٢٠٠ صفحة
- تحريفات العامية للفصحى
٢٠٣ صفحات

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

- ابن زيدون
١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

- الرثاء
١١٢ صفحة
- المقامة
١٠٨ صفحات
- النقد
١١٢ صفحة
- الترجمة الشخصية
١٢٨ صفحة
- الرحلات
١٢٨ صفحة
- الحب العذرى
١٤٨ صفحة

فى التراث المحقق

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
(الجزء الأول)
٤٦٨ صفحة
- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
(الجزء الثانى)
٥٧٢ صفحة
- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد
٧٨٨ صفحة
- كتاب الرد على النحاة
١٥٢ صفحة
- الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر
٣٥٦ صفحة

فى سلسلة «اقرأ»

- مع العقاد
- البطولة فى الشعر العربى
- الفكاهة فى مصر
- معى (١)
- معى (٢)
- القسم فى القرآن الكريم
٦٦٦ صفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

obeikandl.com